محمد باباعمي

رواية

ميمونة

ملحمة فتاة تتحدى ظلم إسرائيل
وتروي أروع درس في الرشد والإيمان

كتابك
Kitabook

كتابك : 008 / 2013
عنوان الرواية : **ميمونة**
إسم المؤلف : الدكتور محمد باباعمي
الطبعة الأولى : 1434 هـ 2013 م
مقاس الكتاب : 195x125
عدد الصفحات : 96
رقم الإيداع : 2282 - 2013
ردمك : ISBN : 978 - 9931 - 817 - 37 - 7

جميع الحقوق محفوظة
Copyright © 2013 Kitabook

veecos
Kitabook.net

Cité Ghaalloul Bordj El Bahri, Alger :: Tél: 021.874.558 :: info@kitabook.net

د. محمد باباعمي

رواية

ميمونة

ملحمة فتاة تتحدَّى ظلم إسرائيل
وتروي أروع درس في الرشد والإيمان

1434هـ - 2013م

المقطع الأول

ساعة التفتيش

ميمونة داخل حمَّام مهترئ متَّسخ؛ نفَق منه الماء منذُ عقود؛ واقفةً على رجليها النحيفتين، أمامَها امرأة لا يكاد يتميَّز عرضها من طولها، كأنَّ القدر جمع صفات القبح من لدن آدم إلى يوم الناس هذا، فصنع وجهها البهيميَّ الصلف.

كانت ذاتُ الشؤم تصرخ بصوت مرتفع:

انزعي جميع لباسك، ولا تتركي خرقة واحدة، إنها ساعة التفتيش، لعَّلكِ أخفيت حديدة أو رسالة في مكان ما من جسدك... هيا، انزعي، ولا تتردَّدي.

وقفت ميمونة واجمةً باهتةً، لا تحرِّك ساكنًا، ولا تنبس ببنت شفة...

استمرَّ الحال بضع دقائق، بين كرٍّ وفرٍّ، في حرب غير متكافئة: فمن جهة ينتصب الكبرُ والحقد والغرور، ومن جهة يرسو الصبرُ والعزة والعفاف... إلى أن سُمع صراخ من خارج السجن:

الضرب... الضرب.... الانتقام... الانتقام...

إنَّه صوت الضابط الأوَّل في السجن العسكريِّ...

انهالت اللئيمة بسوطها الفتاك على ميمونة، فما أسمعتها الفتاة المسكينة آهة ولا أنينًا... وإنَّما انهال الدمع من وجنتيها؛ تتحدَّى العدوَّ بصبرها، فتجلده... وهو يظنُّ أنه يجلدها...

لم تخلع ميمونة لباسها يوماً أمام أحد، امرأةً كانت أم رجلا؛ فهي من يوم بلوغها تحجَّبت ورشُدت، فحملت همَّها وهمَّ العائلة

جميعها... فصارت كأنها امرأة موغلة في المسؤولية، وربَّة بيت خبيرة.

وهي اليوم تبلغ من العمر عقدا ونصف العقد، تدرس في إعدادية للبنات، في قلب مدينة نابلس العريقة، إلى أن نزلت بها مصيبة الاعتقال، فآلت إلى هذا الجحيم الذي لا يطيقه سوى أهل الصبر والإيمان.

في صباح يومٍ شتائيّ بارد، نوت ميمونة زيارة أخويها المسجونيْن منذ ثلاثة أشهر، وهما عمادٌ وطلالٌ، فألحَّت الطلبَ على والدها البالغ من العمر سبعين أو يزيد... فتردَّد الوالد الكريم، كأنَّ صوتا من الأعماق يحذِّره، إلاَّ أنَّ عاطفة الوالد على ابنته الوحيدة تغلَّبت، فاستجاب لها بعد لأيٍ، وقال:

ميمونة، حضِّري بعضا من الطعام، وشيئا من زيت الزيتون، وموسي الحلاقة الخفيف، لعلَّنا نتمكَّن من إيصالها إلى العزيزيْن الحبيبين... أخويكِ.

فعلت الفتاة ما أمرها به والدها، ولم تتردَّد هنيهة، وزادت على ذلك أنها زيَّنت أخاها الصغير صلاح الدين، وعطَّرته؛ كأنَّها تعِدُّه لحضور عُرس، أو حفل آخر السنة في المدرسة... وهي تريد من ذلك أن تغيظ الجنود الإسرائيليين الغاصبين، وتعلِمهم بمجاهد جديد سيلتحق بالركب بعد أمد، وسوف يذيقهم – بإذن الله تعالى – ما لا يحتملون.

ما إن دقَّت الساعة الثامنة صباحا، وتنادى الأطفال وجهة المدارس،

حتى الْتأم شمل العائلة: الوالد محمد، والبنت ميمونة، والملاك صلاح الدين... وقبل أن يغادروا بادروا إلى أمِّهم الرؤوم، وهي في غرفتها، لا تغادرها ليلا ولا نهارا، وقد أصيبت منذ أمدٍ بمرضٍ وحمّى شديديْن، ففقدت على إثرهما أعزَّ ما تملك: النطقَ والكلام... وإن كانت تسمع جيّدا، وترى جيّدا.

وقف الجميع أمامَها، فسارع الزوج بهدوئه المعتاد يخبرها عن العزم، وهي تُصغي إليه، وتفقَهُ ما يريد... ترمقُه بعينين أعياهما البكاء، فرماهما بما رمى به يعقوبَ عليه السلام... لكنَّها لا تملك حرفا ولا كلمة، تعبّر بهما عن رأيها وما يجول في خاطرها... فرفعت كلتا يديها إلى السماء، وهي تلهج بالدعاء... للذي لا يحتاج إلى لغةٍ حتى يسمع ويستجيب... وهي لو نطقت لقالت: «ربِّ، إنَّ لسانَ حالي يغني عن لسان مقالي».

خرجوا من الغرفة، ثم غلَّقوا باب الدار، وساروا في شوارع نابلس، وهي تنشر أريجها بعطر الماضي المجيد، وتحكي قصَّة شعب وأمَّة لا تعرف الهوان، وكلُّ ما فيها وما حولها يردِّد مع الشاعر الفحل حنينه:

لكِ يا منازِلُ في القلوبِ منازلٌ نابُلسُ فينا قد حللتِ منازِلا

ولقد خيَّم الصمت، وألقى حمامه على رؤوس الثلاثة... إذ الوجهة - هذه المرَّة - سجن الغاصب الظلوم، والمغامرة غير مأمونة العواقب؛

لكن على الله الاتكال، وعليه المعوَّل... فالله خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين.

ها هو ذا، مِن بعيد، يظهر تجمُّع عسكريٌّ: «شاليهاتٌ»، وخيم، وحواجز... تحميها من الجانبين مدفعيَّات، وجنودٌ يحملون قذائف «آر بي جي»، يصوِّبونها وجهة المتوافدين من المدنيين، سواءً أكانوا رجالا أم نساء، شيوخا أم أطفالا... هؤلاء الذين قصدوا السجن، علَّهم يحظون بزيارة قريبٍ أو جارٍ أو صديقٍ... ومنهم من جاء يسأل عن حبيب مفقود، راجيا أن يجده هاهُنا...

وصل الثلاثةُ إلى الحاجز الأوَّل، فكلَّفهم الطابور انتظار ساعتين، تحت وطأة البرد القارس؛ حيث الناس تفد وفدا تلو وفد؛ فبعضهم يُسمح له بالدخول لينتقل إلى الحاجز الثاني، وكثير منهم يُردُّون، ولا يُقبل لهم عذر، فيعودون إلى بيوتهم يجرُّون أذيال الخيبة والحسرة... مِن هؤلاء من يصمت ويبلع لسانه، ومنهم من يشتطُّ غضبا، فيسبُّ إسرائيل والجنود، ثم العربَ والذلَّ... ومنهم من يتجاوز قدْره فيلعَن القدَر؛ ثم يغادر ولا يملك غير ذلك...

الجنديُّ، مشيرا بإصبعه إلى الأب الوقور محمد:

"وأنت، أيها العجوز، لماذا أتيت إلى هنا؟ ألا يجدر بك أن تلزم دارك عزيزا مكرَّما؟ لِمَ تعرِّض نفسك للمهالك والأهوال؟!"

محمد:

"لديَّ ابنان قُبض عليهما قبل ثلاثة أشهر، وقد جئت لزيارتهما مِرارا، لكن لم تسمحوا لي بذلك ولو مرّة واحدة... إنهم فلذة كبدي... ياهذا!"

الجنديُّ الأرعن:

"وهذه الفتاة، ماذا تفعل هنا؟ ولماذا تلبس غطاء على رأسها، ثم لماذا تُخفي محاسنها... أليس هذا تعصُّب وتزمُّت؟!"

الوالد، وقد أخفى حنقه وغضبه:

"إنها ابنتي ميمونة"

نزل الجندي بكلتا عينيه الفاجرتين من أعلى جسد الفتاة إلى أسفل قدمها، يخرقها بعينين باردتين، تشرَّبتا المعصية والنظرة الحرام منذ أمد؛ نظر إليها وهو يردِّد:

ميمونة... ميمونة... ميمونة... بنبرة ترشح شماتة وحقدا واستهزاء... ثم قال:

"هيا، انطلقوا إلى الحاجز الثاني، لكن هذه المرّة الرجال لوحدهم من هذه الجهة، والنساء لوحدهنَّ من تلك الجهة... ولتذهب ميمونة نحو هذا الممرِّ... وأنت يا... يا... «الحاج محمد» في هذا الاتجاه مع ابنك..."

عبروا الحاجز الثاني بسلامٍ، وما إن بلغوا الثالث؛ حتى حلَّت المصيبة، إذ نادى الحارس الحقود اثنتين من المجنَّدات، وقال لهنَّ:

"هذه الفتاة، وجدتُ عندها سكِّينة خطيرة، كانت تُخفيها، ومن

شدَّة الخوف سَقطت منها... ها هي ذي... هيَّا، خذوها إلى غرفة التفتيش..."

صرخت ميمونة بأعلى صوتها:

"كذَّاب... أنت الذي ألقيتها أرضًا، وأردت أن تورِّطني... كذَّاب... كذَّاب...!!!"

لم يأبه أحدٌ لصراخها، ولم يكن الوالد من الجهة الخلفية للبناية يعلم ما حلَّ بابنته... فاقتادوها... وهي تصرخ وتعيد:

أبي... أبي...

أدخلوها الغرفة، وطردوا والدها، بعد ذلك، شرَّ طردة، بعدما أعلموه بالقبض عليها... ثم أمروها بنزع ملابسها داخل الحمَّام القذر... إنَّها ساعة التفتيش.

المقطع الثاني

الأسئلة المحيِّرة

مرَّت الأيام سراعا، وميمونة بين أنياب الذئاب ومخالب الوحوش؛ تقضي بياض نهارها وسواد ليلها في مربَّع لا يزيد على المترين؛ والـذي يؤلمها أكثر فأكثر ليس السجن، ولا التعذيب، ولا الكلام البذيء القبيح؛ وإنما التفكير في حال والديها، وبخاصَّة أمّها التي لا تملك سببا للتعبير عن حزنها، وهي سجينة الصمت والوحدة والوحشة:

- تُرى هل سيخبرونها؟! وحين تسأل عنّي، ماذا سيقولون لها؟ أم أنهم سيُخفون النبأ عنها؟ ولكن، أنَّى يملكون ذلك، والزمن قد طال بالفراق، والليالي تطوي الليالي؟

في الأيام الأولى من سجنها، كان البكاءُ لا يغادرها، حتى جفَّت مآقيها، ونفد دمعها، فلم تعُد لها قطرة واحدةٌ تغسل بها ما يعتلج في أعماق صدرها من ضيم... غير أنَّها ما إن ألِفت هذه الحال وتقبَّلتها – والإنسان أليفٌ بطبعه – حتى زال الذي بها من إحساس بالألم، وتحوَّل حالُها إلى ساعات من الفكر والذكر، وإعمال العقل، وإذكاء الفؤاد... ومن طبيعة الحياة أنَّ القلب إذا تحرَّك سكن العقل، وأنَّ صوت العقل إذا علا خفُت صوت القلب.

مِن حسن القدر أنَّ أسئلة عميقة تولَّدت لدى ميمونة، وقد كانت من قبلُ، في الحياة العادية الروتينية، تُناورها ثم تدفعها بعيدا؛ أمَّا هذه المرَّة، وفي هذه الظروف، فقد أكَّدت الأسئلةُ وجودها عنوةً، وألحَّت على

الفتاة الطرْقَ بإدمان، ثم لم تغادرها ساعةً من ليل، ولا لحظةً من نهار.

هذه الأسئلة لا تعرف المحاباة، ولا تقنع بالمداراة، فهي تزور كلَّ إنسان له عقل وقلب وإحساس، مهما بلغ شأنه وشأوه، ومهما كان أصله وفصله؛ على اختلافٍ في الوعي، بين مَن تلازمه صباح مساء، ومن تأتيه مرَّة في الأسبوع أو مرَّتين، وفي الناس من هو أدنى من ذلك، وفيهم من هو أكثر قلقا وتفكيرا.

وإنَّ الخطر إذا أحدق بأحد، فإنَّه يسرِّع سلسلة الأسئلة هذه؛ حتى إنَّ شريط حياته، مع أسئلته المحيرة، ليمرُّ أمام مخيِّلته بتمامه في بضع ثوان، وهو يرى أمارات الموت ماثلة أمام ناظريه، لا يملك استغاثة، ولا يجد مُغيثا...

في أوَّل المشوار انهال عليها وابلٌ من الأسئلة، بعضها عامٌّ كلَّ العموم، والآخر خاصٌّ كلَّ الخصوص... بعضها عميق سحيق، والآخر سطحيٌّ آنيٌّ... إلاَّ أنَّ مرور الوقت عليها، وإشغال الذكاء فيها، جعلها تتقلص، وتتعقَّد... إلى أن استقرَّت في أربعة أسئلة جوهرية، لا خامس لها. ولكَم حاولت إقصاء أحدها، أو إضافة سؤال آخر إليها؛ إلاَّ أنها لم تُفلح؛ إذ كلُّ الحيرة وكلُّ الطمأنينة، وكلُّ السرِّ وكلُّ الجدل... ليجد له تمثُّلا ومنطلقا في هذه الأسئلة الأربعة العجيبة.

صرير مفاتيح الزنزانة صكَّ أذني ميمونة، وبخشونة وعنف دخل عليها اثنان من الزبانية اللئام، وقالوا لها:

"قومي إلى غرفة الاستنطاق، هيا... لا تتردَّدي. هيا... يا حقيرة. يا من تدَّعين القداسة، وأنت الغافلة الساذجة... هيا... بسرعة."

كأنَّ شيئا لم يقع، مكثت ميمونة في مكانها وتسمَّرت، ورَسَت جبلا أشمَّ عنيداً؛ كأنها لم تسمع أوامر الضيفين الأحمقين؛ بل إنها لم تسمعها حقيقة، ذلك أنَّ فكرها كان متحرِّكا ومتقدا فيما هو أسمى من ذلك وأرفع، وقلبها كان ملحاحا في البحث عن الحقيقة؛ ومن طبيعة العقل أنه إذا اشتغل بالمعالي لم يأبه بالسفاسف، وإذا خلا من العظائم غمرته الصغائر... ثم إنّ من عادة الإنسان أنه يتخطَّى الأهوال، ويقتحم الصعاب، لا بجسده الضعيف المرهف، لكن بقلبه الكبير الواسع، وبعقله المدبِّر الفقيه.

انهال عليها أشقاهُما بسوطٍ مطَّاطيّ، حتى أدمى ظهرها، وراح الثاني يُجهد نفسه في إيقافها، بالشدِّ على ذراعيها تارة، وبالركل تارة... ومع كلِّ ذلك لم يُفلحا في ثنيها عن عزمها؛ كأنهما خائرا القوى، خاويان، يطعمان السحت، ويركبان الفجور...

بعد أمد، قرَّرت الفتاة أن تستجيب طواعيةً، فرتَّبت تلابيب ثوبها البنّي المرقَّم، ثم نادت بأعلى صوتها:

يارَبِّ ساعِدني وكُن معي

دخلت صالة الاستنطاق، فتفنَّن الكبرياء في ألوان التعذيب، حتى إنها لتتألَّم الألم المبرَح، وتصبر الصبر الجميل؛ وهي تردِّد أمام

العالمين ملحمة بلال بن رباح: «أحد... أحد...»، أو هي تستذكر أسطورة الأبطح من رمضاء مكَّة، وعليها يلقى آل ياسر أنكى أنواع العذاب، وفيهم سمية أمّ عمَّار تلفظ آخر أنفاسها راضية رضية... ثم لكأنَّ ميمونة تسمع اللحظة صوت النبيّ ﷺ غضًّا طريًّا، بل لعلَّها تسمعه حقًّا وحقيقة، وهو ينساب على قلبها بردا وسلاما، ويقول لها ما قال لآل عمار: «صبرا ميمونة، وصبرا آل ميمونة، فإنَّ موعدكم الجنة».

مرَّت الساعات الثقال عليها كما تمرُّ اللحظة والثانية، فقدت فيها الفتاة المحتسِبة كلَّ معنى للمادة والجسد والألم، وارتبطت بجميع معاني الروح والعالم العلويّ الملائكيّ... فلمَّا أيسوا منها، وقد أرهقتهم، جعلوا يصرخون كالكلاب المسعورة... والفتاة في قرارة نفسها تقول: «موتوا بغيظكم... موتوا بغيظكم... موتوا بغيظكم...».

عادت ميمونة إلى زنزانتها، وهي - إذا قورنت بصالات التعذيب - قصرٌ منيف، ومأوى ومِرفق؛ إذ الأمور في الحياة جميعُها نسبية، فما كان للبعض شقاءً، هو للآخَرين هناء؛ وإنما القلب هو الذي يعطي المعنى أو يمنعه، ويهب القيمة أو يسلبها.

عادت الفتاة إلى حالها السابق، وقد نسيت ما حلَّ بها، وعاودت الكرَّة مع أسئلتها المحيّرة: تصوغها... وترتّبها... وتصنّفها... ثم تُراجعها؛ ثم تعيد صياغتها من جديد... كلُّ ذلك في ذهنها الألمعيّ، وقد اكتسبت قدرة عقلية فائقة؛ حتى إنها لتجمع الأفكار في آن واحد،

وتشيد بناء فكريا متلاحما في مخيّلتها؛ وذلك ما يعجز عنه الواحد ممَّن ألِف السطحية والرتابة، واستمرأ الكسل والاتكال... ومن شأن المحن أنها تذكي الفؤاد، وتبلو الرَّشاد...

من حسن القدر أنَّها وجدت قطعة من فحمٍ تخِذتها قلما، ومساحة صقيلة جعلتها قرطاسا، وشعاعا من شمس النهار، يخترق كوَّة صغيرة، عدَّته نبراسا؛ فاستجمعت قواها، كأنها في قاعة امتحان مصيريّ عسير، وطرحت كلَّ ما من شأنه أن يشتت ذهنها، مِن خواطر وأوهام، ومن تعلاَّت ودندنات؛ ثم أحسنت الجلسة، ونادت بأعلى صوتها: «بسم الله، توكلت على الله»؛ ثم وضعت يدها اليسرى - متكئة - على الخشبة التي تنام عليها، أمَّا اليمنى فقد رشَّحتها لخطِّ أسئلتها المحيِّرة، وكتبت:

- أنا؟
- خالقي؟
- الإنسان؟
- الكون؟

وما إن رسمت حرف «النون» من الكلمة الأخيرة، حتى سرت قشعريرة في كامل جسدها اللطيف، ثم سالت عَرَقًا، وديانًا بل أنهارًا؛ وغمرتها مُسحة من السعادة قلَّما وجدت لها مثيلا في حياتها العادية النمطية الوديعة؛ وتحقَّقت حينها أنها قفزت من شاطئ التقليد الأعمى،

إلى بحر الإيمان الفطريّ اليقيني؛ نعم إنَّ ذلكم الشاطئ ثابت، ولكنه محدود وفقير ومملٌّ؛ أمَّا البحر، فمع هيجانه، يحمل معاني التحدي والفطنة والأمل؛ وفي أغوار أعماقه تختفي الأصداف الغالية، والكنوز اللامتناهية...

الشاطئُ، لمن تفكَّر ووعى، هو حفنةٌ من تراب لزج، لو بنيتَ منه مستقرًّا ومأوًى، فهو لن يعدو أن يكون «لُعبة أطفال» لا تدوم، ولا تصبر على تقلُّبات الزمان والمكان...

البحرُ، لمن تدبَّر وأدرك الحقيقة في نصاعتها، هو الحياة كلها، وهو النماء جميعه، الحاذق به لا يجوع أبدا، ولا يظمأ أبدا... نعَم «من يركب البحر يترجَّل، ومن يخش المخاطر يترهَّل»...

باختصارٍ: الشاطئ للصغار، والبحر للكبار...

ميمونةُ، من هذه اللحظة، ودَّعت الرتابة، والعادة، والإلف، والولع بالآخر، والببغائية، وتكرار ما يقوله الناس بلا روية ولا فكر؛ إنها صارت شخصية كاملة الملامح، لا «شخصًا» بليد الروح والفؤاد؛ إنها الآن شخصيةٌ مستقلَّة، لها مميّزاتها، وخصائصها؛ وليست مجرَّد «صورة طبق الأصل» لأناسٍ آخرين...

عقلُ ميمونة، من تلكم الحادثة السعيدة، طلَّق الجمود، وودَّع

الخمود؛ وعزم على الحراك والحركية؛ لقد آنف أن يتشبَّه بالبغال والحمير، وقرَّر أن يسمو إلى مقام النفَس الربَّاني، ويطل من علياء الجمال والجلال النبوي...

لميمونةَ عقلٌ، استعاد وظيفته، وكفى...

مرة أخرى، فُتح باب الزنزانة، لكن هذه المرَّة ليمدُّوها بصحن من الطعام صديءٍ، فيه حُبيبات من «المعكرونة» التي لا طعم لها ولا ريح، ولا قوَّة فيها ولا لون؛ لكأنَّها طُبخت بماء الجفاء، وخُلطت ببعض من مذاق الزقُّوم...

"هيَّا، كلي... هذا كثير عليك، أيتها الفتاة الـ...."

كلام قبيح ألفت سماعه من هذه المرأة الرعناء.

التفتت إليها ميمونة، وقالت:

"هل لي أن أسألك بعض الأسئلة، لو سمحت؟"

قالت:

"أسرعي، ولا تضيِّعي عليَّ وقتي العزيز، فأنا مشغولة جدًّا".

قالت:

"هل مرَّ بك يومًا أن سألتِ نفسك، هذه الأسئلة العميقة: مَن أنا؟ من هو خالقي؟ ما تصوري عن الناس؟ وما هو موقفي من الكون؟".

صعقت الحمقاء، والحقُّ أنها لم تكن تنتظر مثل هذا الاختبار

المزلزل، وقد كان في ظنها أنَّ الأسئلة – كعادة السجناء الآخرين – ستكون عن: فساد الطعام، وعن برودة الزنزانة، أو عن صابون الحمام... أمَّا أن تأتي هكذا، بهذا العمق، وفي مثل هذه الظروف، ومع هذه الثقة والمضاء، فليس ذلك بمستساغ عندها، لا عقلا ولا واقعا...

تلعثمت البلهاءُ، ثم استشاطت غضبا، وثقبت السائلةَ المسكينةَ بعينين جهنميتين؛ فرأتها – وهي في صورة ملاك – باسمةَ الثغر، هنيَّة هادئة... ثم صرخت بأعلى صوتها، تريد أن تُسمع الثقلين، وتصكَّ آذان العالمِين، صرخت على وجهها:

"لا أستطيع... خرقاء... ابحثوا عمَّن يصبر على هذه الطفلة التعسة... آه... آه..."

وخرجت من الزنزانة، بقلبٍ فائر، ولسانٍ ثائر...

أمَّا ميمونة، فأدْنَت إليها الصحن لتأكل، وكرَّرت النظرة إلى أسئلتها الأربعة، ثم قرأتها بإمعان: «أنا؟ خالقي؟ الإنسان؟ الكون؟»...

ثم لهج لسانها الرطب دعاء ملأ الأرجاء عبيرا فواحا، وأسمع الأكوان لحنا صدَّاحا:

يارَبِّ ساعِدني وكُن معي

المقطع الثالث

ميمونة تهدِّد أمن إسرائيل

في ساعة متقدِّمة من اليوم، ميمونة قائلةٌ، مِن شدَّة العياء والتعب، نتيجة التفكير المتواصل والتركيز الشديد، بينما كانت تجيل خيالها فيما لم تتذكره بعد ذلك؛ اقتحم عليها المكانَ ثلاثةٌ من زبانية إبليس: شرطيان وشرطية؛ وكان من بينهما النقيب الأوَّل يصرخ مسعورا:

«هيا، فتِّشُوا جيدا، لا تتركوا شيئا إلاَّ قلبتموه على ظهره... هيا... هيا».

طال بهم الصلف والتهريج، والبنت من أثر النوم لا تعرف هل هي في كابوس مزعج مرعب، ولكم رأت من كوابيس مثل هذه؟ أم أنها في غمرة الحياة وعيانها، وهي أحيانا أسوأ وأشق من الكابوس بألف مرة؟

بأعلى صوتها قالت الشرطية الرعناء:

"اكتشفتُها... وجدتُ الدليل... ثبتَت الجريمة... ما هي جائزتي أيها النقيب، ولقد وعدتني بها ؟ ".

اِلتأم شمل المقتحمين الثلاثة، متهلِّلين، ضاحكين، مستبشرين... وقد حقَّقوا النصر المبين، ووقفوا على رأس الدليل الخطير ينظرون، ويقلِّبون النظر، ويُعيدون... كلُّ واحد منهم يجد في إنجازه هذا حظوةً لدى مسؤوليه الكبار، على شاكلة: «أئنَّ لنا لأجرًا، إن كنَّا نحن الغالِبين»، ولا يعنيهم بعد ذلك، ولا قبل ذلك، شيء...

أخرج أحدهم جهازه المحمول، مِن النوع المتقدِّم، وشرع في التقاط الصور، إذ لديه اليومَ دليل بيِّن واضح للعيان، يدعَم التهمة، ويجعلها غير محتملة النقض... فلمَّا أسرف في التصوير يُمنة ويُسرة،

نادى الفتاةَ المبهوتة الواجمة، الهادئة المتَّزنة... وقال لها:

"قفي إلى جوار ذنبكِ، حتى ألتقط صورا... هاه... صورا نقدمها لهيئة الخبراء..."

وقفت الفتاةُ الحمامةُ إلى جوار «لوحها الصغير»، وأخذ الأحمق المغرور صورة لها، وإلى جوار المحتسِبة مكتوبٌ بالأسود الفاحم، أربع كلمات:

«أنا؟ خالقي؟ الإنسان؟ الكون؟»

وما إن انتهوا، حتى أدخلت الشرطية الغاشمةُ منشفة متَّسخة وطست ماء قذِر، وعنَّفت الفتاة بصوت أشبه ما يكون بعواء الذئب الأجرب:

"اغسلي عارك، ألا تعلمين أنَّ الكتابة والتفكير، هما التهمة الأولى التي يعاقِب عليها القانون عندنا... اغسليها... جيِّدا... أريد أن أرى المساحة برَّاقة... ولا تعودي إلى مثلها أبدا".

انحنت الحليمة بهدوء نحو إنجازها، وبدأت المسح والغسل من الأسفل، فأزالت الكلمتين الأخيرتين: «الكون» و«الإنسان»، ثم انتقلت إلى أعلى، فمسحت الكلمة الأولى: «أنا»... وتردَّدت في إزاحة الثانية «خالقي»... فأرغمتها اللعينة، وقد انهالت عليها لعنا وركلا وخدشا، أرغمتها على مسح الثانية، ففعلت مُكرهة، والدموعُ تنهمر من وجنتيها حرَّى... وهي تردد بأناة دعاءها المألوف:

يارَبِّ ساعِدني وكُن معي

حول طاولة للاجتماعات، دائرية الشكل، أخذ الخبراء والمحقِّقون مكانهم، ثم أمروا بإدخال النقيب الذي اكتشف التهمة الموجَّهة إلى ميمونة... فدخل، وهو قابضٌ أنفاسه، وألقى التحية العسكرية، فأمره أحدُهم بالجلوس في المكان المخصَّص له، ثم أظهروا الصور الملتقطة على الشاشة العارضة، فبدأ يشرح كيف اهتدوا إلى دليلهم هذا، وأطنب في عرض التفاصيل، إلى أن قاطعه كبير المحقِّقين، قائلا:

"كفى... حسبك... انتهى الغرض من العرض... اجلس".

أدلى الحضور بآرائهم، ولقد كانت سخيفةً لا معنى لها، من نوع الوصف الساذَج لا غير، لا تحليل فيها ولا عمق، ولا أبعاد ولا أسباب تسنِدها... بينما كان ضمن المحقِّقين رجلٌ درج في سلَّم الجامعات عقودا، ونال أكبر الشهادات اجتهادا، وتفنَّن في الكثير من العلوم بحقٍّ، وبخاصَّة ما تعلَّق منها بعلوم المنطق، وعلوم النفس، ونظرية المعرفة... وكان اسمه الوظيفي "زئيف"...

التفت إليه رئيس الجلسة، وقال:

"أنتَ، ما رأيك فيما سمعت وشاهدت؟"

صمتَ قليلا، وأجال النظر على ورقة كتب عليها بعض الخربشات أوان العرض، وأوان حديث الآخرين، فتمتم بهدوء، وقال:

"إذا كانت هذه البنت، في هذا العمر، قد رسمت هذه الكلمات، بهذا الترتيب، وبهذه الصورة، وتعلَّقت بها كلَّ هذا التعلق الذي وصفتموه، وبكَت لأجلها، ونافحت عنها... فلا شك أنها فتاة مختلفة

تماما عن المألوف، وأكبر يقينا من عمرها".

ثم أخذ رشفة ماء، وواصل سلسلة أفكاره، والكل منتبه حائر واجم، فقال:

"سادتي، إنَّ هذه الكلمات يعبَّر عنها في بعض العلوم المتطورة بمصطلح «الرؤية الكونية»، أو «رؤية العالم»، وهي من النماذج الإدراكية، ومن نوع البراديمات الثورية البديلة... فهي إذن، أقصد: ميمونة، تحاكي العلماء المرموقين دهاء وفطنة".

ثم تلعثم هنيهة، وواصل:

"أمَّا إذا كان جميع أطفال فلسطين، والمسلمين، بهذا المستوى من الوعي والإدراك والفهم، فإني أصبحت أخشى على مستقبل إسرائيل، فهي على أيديهم ستذوق الأمرَّين...لا قدَّر الله، طبعا".

قاطعه ضابط متهوِّر، تبدو عليه أمارات الجهل بحقيقة ما سمع، فقال:

"لعلَّك تبالغ! ما هي إلاَّ كلمات، كلُّ الناس قد يهتدي إليها ويكتبها، حتى الأطفال الصغار... أو لعلَّها حفظتها حفظا، ورددتها ترديدا".

إلاَّ أن المحقِّق "زئيف" استأنف تحليله، كأنه لم يسمع شيئا:

"أيها السادة المحترمون، أتحدَّى الجميع في القاعة، أن يجد لي، اليومَ، وقد أصيب أبناؤنا بخواء العصر وبفراغ المدنية، أتحدَّاكم أن تجدوا شابًّا من شبابنا اليهود، المترَعين بالمادة للأسف، يستطيع أن يسمُو بإدراكه ووعيه إلى هذا المقام العالي، الذي بلغته ميمونة صبرا وجلَدا!".

"أيها المستمعون، نحن اليوم في مواجهة جيل من العرب، مسخت

آلة الاستعمار أغلبهم، وعاشوا لعقود بلا بوصلة، تائهين ضائعين، فكانت جلُّ حكوماتهم عميلة لنا، أو على الأقل خائفة منا، مقتنعة بعدم جدوى مواجهتنا... أمَّا نحن، أقصد قادة إسرائيل اليوم، فقد نشأنا في تربية ومدارس صارمة منضبطة، ونظام لا مثيل له، والتزام بمبادئنا وقيمنا لا يعرف العرب مداه...لكن، تذكَّروا سادتي، أنَّ أبناءنا اليوم، ليسوا على مثل همَّتنا، ولاحظوا أنَّ أبناء أعدائنا التقليديين، فيما يبدو، قد تخطَّوْا عقبة آبائهم، فحرَّكوا قلوبهم وحرَّروا عقولهم، ثم أعادوا الصلة بتراثهم وبدينهم، وصاروا أكثر وعيا، وأصلب جانبا من أبنائنا...".

"سادتي، ميمونة هذه، أكبر دليل على ما أقول".

أطلَّ "زئيف" على الضابط الأبله، من فوق نظاراته، بكلتا عينيه، وقال له:

"أيها الضابط المحترم، غدًا سيكون أمثال ميمونة وجهًا لوجه مع أمثال ابني وابنك، في حرب غير متكافئة، أم تراك تقول العكس؟".

لم يجب المعنيُّ بكلمة واحدة، وما كان له أن يجيب، وهو يعاني من ابنه المدمِن على المخدرات، والمتمايل بين الحانات وصالات الأفلام، وهو الفاشل في دراسته، الخائف من الإقدام، المبغض للعلم والالتزام...

يعرف الضابط أنَّ صديقه "زئيف" يعرف عن ابنه ذلك، جيدا...

أُمِر النقيبُ بالانصراف؛ لأنَّها ساعة القرار الحاسم، وليس هو مخوَّلا بالمشاركة فيه، ولا بإدلاء الرأي حوله، فخرج من القاعة بعد

تحية حارة ألقاها.

بُدئ في المداولات، وكانت الآراء حولَ ميمونة، ومصير ميمونة، متضاربةً جدًّا، إذ اقترح البعض أن تصفَّى، ثم يعلن أنها ماتت في المستشفى بمرض خبيث ألمَّ بها... واقترح آخرُ أن يجرى لها غسيل للمخّ، ينهي آلة الفكر عندها، ويريح إسرائيل الجبَّارة من شرها وكيدها وجريرتها...

طال الحديث ودار، وذهب كلُّ واحد مذهبه، والمقرِّر يسجل كلَّ ما يقال كلمةً كلمة، حرفا حرفا... إلى أن وصلوا إلى "زئيف"، وهو الصامت المتأمل لا يقول شيئا، فسألوه كما سألوه قبلها:

"ماذا ترى في مصير ميمونة، وقد أفدتنا بحقيقتها، وبيَّنت لنا أبعاد حالتها؟"

إلتَفتَ "زئيف" إلى الرئيس، وقال له:

"هل تسمح أن أكون واضحا، صريحا، عميقا، لا ألتوي، ولا ألوك الكلام، ولا ألقيه جزافا؟"

قال الرئيس:

"طبعا، تفضَّل، أكرمنا برأيك"

"زئيف":

"سيدي الرئيس، أرى أن نُكرِم مثواها، وأن نمنحها إمكانية اللقاء بعدد من السجينات الأخريات في مثل عمرها، أو أكبر بقليل، ثم نضع بين يديها مكتبة، ومصادر، ودفاتر، وأقلاما... ونتركها لحالها".

مرَّة أخرى، لم يتمالك الضابط الأخرق، فقاطعه بنبرة حادَّة، قائلا:

"ماذا؟! هل جُننت؟ كيف نجازي المجرم بالشكر والتقدير؟ وهل نترك هذه الجرثومة تفسد على السجينات الأخريات أفكارهنَّ وآراءهنَّ... فيتحوَّلن إذن إلى نُسخٍ طبق الأصل من ميمونة الحقيرة؟... هذا عجيب... إنه أعجب ما سمعت في حياتي".

قال "زئيف"، بهدوء منقطع النظير:

"لا يا سيدي، إنها ليست حقيرة كما تفضَّلت، لكنها واعية، نابهة... هي شحنة من صفات الذكاء والنباهة... عقلُها واسع، وقلبها أوسع... يجب علينا أيها المحترمون، أن نسمي الأشياء بمسمياتها، وإلاَّ فإنَّ الخطأ سيكون حليفنا في كلِّ تقدير وتدبير".

إلاَّ أنَّ الرئيس نفسه، رغم تعاطفه وتفهُّمه، لم يفهم المقصِد والغرض مما ذكره "زئيف"، وهو الذي يحترمه ويقدِّم رأيه على غيره، ويعرف مدى سداد ما يأتي به، ومدى عمقه... فقال:

"طيِّب، ما الغرض مما اقترحت، يا "زئيف"؟"

قال:

"لنتَّخذها عيِّنة للدراسة، ولنجعلها حقلا لمعرفة ما يجول في عقول شباب العدوِّ اليوم، ولنتحقق من الفرضية التي طرحتُها آنفا: هل هي مثبتة؟ أم أنها خلاف ذلك؟... ومَن يدري لعلها تتحول إلى نظرية في الأمن القومي، وتؤثر كلية على بنائنا الاستراتيجي، فتعطي لنا إنارات وأضواء لمستقبل صراعنا الـمُقَدَّس"...

ثم واصل حديثه مسترسلا:

"أيها الرئيس، أيها السادة، ليست السياسة ردَّة فعل ساذجة؛ ولكنها نسيجٌ من الوعي والإدراك والهدوء والتخطيط... فإذا فقدنا هذه الخصائص فقدنا توازننا، وخسرنا المعركة قبل الحرب... دعُونا نبقَ إسرائيل القوية، ولا تعيدونا إلى الضحضاح... رجاءً".

صمتَ الجميع، كأنَّ على رؤوسهم الطير، وألقى الضابط المشاكس رأسه بين يديه، وسمَّر عينيه على ورقته الملقاة فوق الطاولة أمامه...

وبعد دقائق من السكوت التام، قال الرئيس:

"الآن ساعة القرار، فبعدما استمعنا إلى الحضور، وحلَّلنا ما ورد إلينا عن ميمونة هذه، أرى أنَّ ما قاله "زئيف" هو عين الصواب، وهو لبُّ الحكمة، وإني أتوجه إليكم سادتي: مَن منكم يوافقني، فليرفع يده معلنا ذلك؟ ومن له رأي مخالف، فليدل به؟"

ارتفعت الأيدي جميعها، إلاَّ يد الضابط، الذي غلب عليه طابع الحنق على "زئيف"، وغلبه الكبر والادعاء... وكذا يدُ "زئيف"، الذي هو صاحب المقترح، وصاحب الفكرة ابتداءً.

ولما همَّ الرئيس بإعلان الانصراف وإنهاء الجلسة، استأذنه "زئيف" وقال له:

"أريد أن تسمحوا لي في نفس السياق، تكميلا لمسار البحث والتحقيق، أقترح أن نمهل الفتاة في السجن عاما، نراقبُها، ونصوغ تصوراتنا ومواقفنا، ومن ثم نخطط أفعالنا... ثم بعد ذلك نطلق سراحها، ونضعها، وهي بين أهلها، ومع صديقاتها، وفي مدرستها وحيها... نضعها قيد المراقبة والمعاينة؛ فإنَّ هذه الفتاةَ بلغةِ العلم والبحث العلميّ، حقل خصب وعيّنة ولود... هل توافقون؟"

ضحك المستمعون، وحالهم يقول:

"وهل نملك الرفض، وأنت صاحب الحظوة لدى الرئيس، وصاحب الحجة المتينة، والدليل القاطع، والرأي الحصيف؟".

ثم قاموا، وقد كتبوا على دفتر التقارير كلَّ هذه القرارات؛ حتى تتحول إلى هيئات التنفيذ المعنيَّة، وتوضع رهن التطبيق... عاجلاً...

المقطع الرابع

أنـا ؟

ذات صباح، وميمونة صائمة، ذلك أنها، حسب تقديرها، وقد تكون أخطأت التقدير، قد دخل شهرُ رمضان منذ أيام؛ زارت لجنة خاصَّة إدارة السجن، فتنادى جميع الموظَّفين إلى الانضباط؛ لعلَّ المسألة مسألةُ تفتيش ومراقبة من الوزارة؛ غير أنَّ اللجنة كانت تحمل «تكليفا بمهمَّة»، كُتب فيه ما يفيد السماح لها بأن تأخذ ميمونة، مرفقة بملفِّها، وتُنقل إلى مكان غير معلن في الوثيقة، فما كان من مدير السجن إلاَّ أن وقَّع على النسختين؛ سلَّم واحدة منها إلى اللجنة الموفدة، ثم أعطى أوامره بإلباس ميمونة لباس الخروج من السجن، والإتيان بها فورا... لتغادر...

أحضرت اللجنة سيارة خاصَّة بنقل المساجين السياسيين، وانطلقت بالفتاة الطاهرة بعيدا، إلى حيث ينفَّذ فيها حكم المراقبة، ويطبَّق عليها إجراء المعاينة البحثية، مع الكثير من الرخاء والرفاه الماديِّ...

وما هي إلاَّ ساعات، حتى دخلت ميمونة عمارةً شاهقةً، وجدت فيها حسن الوفادة والاستقبال؛ كأنَّها دخلت فندقا معتبَرا؛ وممَّا يجلب الانتباه حقًّا أنَّ العمَّال والعاملات مختلفون عن الذين رأتهم من قبل، في كلِّ المظاهر والتفاصيل تقريبا...

دخلت حائرةً، فألبسوها لباسا جميلا، يحمل رقم 151، ثم نقلوها على جناح السرعة إلى غرفتها، داخل شقَّة، بها عشر فتيات فلسطينيات من عمرها، ومن طينتها ولسانها... فلمَّا ولجت عتبة الباب، قالت:

«بسم الله، توكَّلت على الله»؛ ولما أبصرت سريرها وجدته وثيرا نظيفا مهيَّئا بعناية، فما كان منها إلاَّ أن جلست وحاولت استيعاب ما حدث ويحدث؛ ذلك أنه غير مفهوم تماما، وغير معقول البتة...

لم يطُل تفكيرها، حتى دخل عليها الغرفةَ، بعد الاستئذان، ثلَّةٌ من الفتيات، وسلَّمن عليها بحرارة، كما سلَّمت عليهنَّ بشوقِ مَن لم يسامر حبيبا أو قريبا منذ أمد... ثم بدأ الحوار والتعارف؛ فكانت كلُّ واحدة منهنَّ تجتهد في وصف ما كانت عليه بأمانة... الشكر والحمد والاستغفار لا يغادر الشفاه؛ وقد جمع بينهن أنهنَّ مظلومات طبعا، وأنهن كنَّ في سجون مغلقة، متسخة، مهينة، لا ريح فيها للإنسانية ولا روح، وأنهن هذا الصباح نُقلن إلى هنا، ولا يعرفن السبب ولا السر...

المهمُّ أنَّ كَّل شيء كان مختلفا ومحيِّرا: النظافة، والوجوه، والاستقبال، وحرية الالتقاء، والمكتبة، وبخاصَّة وجود مصحف للقرآن الكريم في كلِّ غرفة... وغير ذلك من تفاصيل لافتة للانتباه، لا حدَّ لها ولا حصر...

كان الراجح عند الكلِّ أنَّ هيئة عالمية لحقوق الإنسان تريد زيارة سجن من سجون إسرائيل، فحضِّر لها هذا السيناريو التمثيلي، أو لعلَّها هي التي أمرت بتحضيره على عادة الهيئات الدولية في علاقتها «بأهل الدار»... إذن، ما إن تأتي، ثم تغادر، حتى تعود الأمور إلى ما كانت عليه، وتعاد كلُّ واحدة إلى قفصها... ولهذا السبب رُحن يلتهمن

الوقت التهاما، ويرتشفن الودَّ ارتشافا... «وساعات الهنا تمرُّ عِجالا».

لكنَّ الأيام هرولت متسارعة، ولم تزر أيُّ هيئة هذا المكان فيما يبدو، فكان العجب والحيرة يزدادان يومًا بعد يوم، ومن عادة البشر أنهم لا يطمئنُّون لشيء، حتى ولو كان خيرا ومتعة، إذا لم يدركوا سببه وحقيقته...

أمَّا ميمونة فقد وجدت الفرصة سانحة، والظروفَ مواتية، لمواصلة مشوارها الذي بدأته منذ أمدٍ، فعادت إلى أسئلتها الأربعة، سؤالاً سؤالاً؛ ثم استقرَّ رأيُها على أن تبدأ بالأوَّل، وتجعله محور فكرها صباح مساء؛ لا تغفل عنه لحظة ولا طرفة عين؛ إلى أن تُشبِع منه نهمها، وتعلي به همَّتها؛ ولم يكن يشغلها أيُّ خوف؛ بل إنها لم تتأثر من التهمة التي وجِّهت إليها من قبلُ، تهمة التفكير والكتابة؛ وهي تعي أنها لو توقَّفت من إعمال العقل والقلب، ولو امتنعت عن إشغال القلم والقرطاس؛ لكان موتُها أفضل من حياتها؛ وهي بفضل الله ذكية، نابهة، مِلحاح، فعَّالة... لا تعرف المستحيل والخوف والدون، ولا ترضى بالمهانة والذلة والهُون...

مدَّت يدها إلى دفتر مزركش، واستجمعت قواها، ودَعَت: «يا رب، ساعدني وكن معي»؛ ثم تناولت قلم الحبر، وفتحت أوَّل صفحة من دفترها، وخطَّت برسم جميل هذا السؤال:

من أنا ؟

مِن هذه اللحظة بدأ المراقبون يلاحظون كلَّ صغيرة وكبيرة في حركات الفتاة المحيّرة، عيّنةِ البحث... يتصيَّدون سكناتها؛ ويصوّرون بالكاميرا المخفية ما تكتبه، وهو يظهر على شاشة ناصعة ملونة، كأنه العيان والحقيقة..

ولقد نظَّم "زئيف" برنامجا أسبوعيا لحضور المراقبة، ولتحليل ما يسجل له، مما يُظن أنه هام ودالٌّ...

مرَّت الساعات تطويها الساعات، والأوقات تلفُّها الأوقات؛ وميمونة لم تضف حرفا إلى سؤالها؛ غير أنها كانت كالمصابة بالدوار، لا تغادر ساعة من ليل أو نهار، إلاَّ وتجهد عقلها فيها، وهي تسمِع أذنيها وقلبَها وعقلَها ومن حولها سؤالها المحير... فتصوغه بشكل، ثم تعيد الصياغة، وتجيب مشافهةً بمقترح... ثم آخر... ثم تمحو وتثبت... حتى اختلط عليها الحلُم بالحقيقة، والخيال بالعيان...

أمَّا مع زميلاتها فكانت تتجاذب أطراف الحديث، حول أمور قد تكون أكبر من عمرهنَّ، إذ ليس ثمَّة لحظة ولا برهة من فراغ ولغو، ولا فرصة من حديث فارغ أو كلام خارج السياق... ولقد استقرَّ تركيزهن بعد أمد على سؤال واحد، هو:

من أنا ؟

غاص التفكير فيه بجدّية، ولم تجد ميمونة صعوبة في اكتشاف

أنَّ أغلب تلكم الفتيات قد فكَّرن فيه من قبلُ، بروح عالية، ولبعضهنَّ أجوبة عميقة حوله... فهي إذن ليست نشازا، ولا هي خارج المألوف...

من غرفة المراقبة قال أحدهم:

"صدق حدس "زئيف"، يبدو أنَّ أطفالهم كلَّهم مسكونون بالسؤال عن الذات والهوية والوجود، وذلك بفطنة تفوق خيالنا".

علَّق صاحبه، قائلا:

"لكن، أنَّى لهم هذا المستوى؟ من أين اكتسبوه؟ ونحن نعلم أنَّ مستوى التعليم عندهم ليس على ما يرام... أنى لهم هذا... أنَّى لهم هذا؟"

كانت ميمونة فجر كلِّ يوم، والنوافذ تكشف ما في الخارج من جمال الطبيعة وجلاله، تفتح دفترها على السؤال المذكور، ثم تأخذ المصحف الكريم بيدها اليمنى، وتتلو آي الذكر الحكيم آية آية... باعتبار وادِّكار... تقف عند رأس الآية، أو في مقطع منها، وتسأل السؤال عينه: «من أنا؟»... مُسقطة ذلك على ما تتلو من كتاب الله الحكيم...

فمثلا، عندما وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾(البقرة:٣٠)

نادت بصوت هادئ، عليه مسحة من بحَّة الصباح:

"إذن، أنا... ميمونة، خليفة لله في الأرض، بإرادة من الله تعالى، وبتفضُّل منه عليَّ... الآية تعنيني أنا، وتخاطبني أنا".

ثم سكتت، وسألت نفسها:

"لكن، ما الذي يستلزمه هذا الشرف العظيم، وما هي تبعاته وواجباته...؟"

وهكذا، على هذا المنوال، استرسلت لأيام وأيام، لا تملُّ ولا تكلُّ، ولا تقلق ولا تفتُر، كأنها الناسك في معبده، أو أنها مريم البتول في محرابها...

ومن همَّتها أنها ختمت القرآن الكريم كاملاً، بهذا الأسلوب المحكم البديع، دون أن تكتب أيَّ حرف... ثمَّ تناولت كتابا في السيرة، مِن المكتبة المذكورة، وتعاملت معه بذات النفَس والروح القتالية، وانتقلت إلى مصادر أخرى للعقيدة، والفقه، والفكر... في كلِّ مرة تجعل محور فهمها وإدراكها سؤالَها العميق، وما يترتب عنه... فتحاور وجدانها وتُعيد:

"أنا ميمونةُ: من أنا؟ ما حقيقة وجودي؟ من أين جئت؟» ما هو مصيري؟ متى أجلي؟ ما وظيفتي في الحياة؟ ما هي تصوراتي؟ ما هي مواقفي؟ ما هي نقاط ضعفي؟ ونقاط قوتي؟ والفرص التي تلائمني؟ ..."

بين حيرة وتوجُّسٍ وإعجابٍ ظلَّ المراقبون يسجّلون كلَّ إشارة وعبارة، وكلَّ شاردة وواردة؛ حتى إنَّ الواحد منهم ليجد أحيانا نوعا من اللين والرفق في قلبه، ثم بموجب الصور النمطية، والتراكمات الوهمية، والشكوك والظنون المعتقدية، ومتطلبات الانتماء، أي بموجب النماذج الإدراكية التي تراكمت، فإنه يرمي هذا الإحساس جانبا، ويلقي على قلبه ضبابةً من برودة الجحود وصلف الجفاء، فتغطِّي عليه الحقَّ، وقد كاد يهتدي إليه... نعَم، إنهم ليجحدون الحقَّ، وقد استيقنته أنفسهم ظلما وعلوًّا...

كلُّ هذا الحراك الظاهر والباطن، الجليّ والخفي، كانت الفتاة العفيفة وصديقاتها الطيبات لا علم لهنَّ به... هي مع زميلاتها تصنع الفَرْق، وترصُّ الحجارة الأولى في صرح التمكين والحضارة... من هذه النقطة: نقطة تغيير ما بالنفس، وإقدارها على أن تكون محطَّةً للتجليات والواردات والفيوضات ...

كان "زئيف" على موعدٍ للمكث في غرفة المراقبة البحثية، للتحرّي في معاينة تصرفات الفتيات، وعلاقة ذلك بأقوالهنَّ وأفعالهنَّ، وبخاصَّة ميمونة التي أولاها عنايته الخاصَّة، لا حبًّا ولطفا ولكن دهاء وحقدا... وفي هذه الأمسية، راعه أن شاهد لعبة، انقسم من خلالها الفتيات فوجين اثنين، يلعبن لعبة فكرية، تصف نوعا من الثنائيات الكونية:

«الوجود/العدم»، «الخالق/المخلوق»، «الحي/الميت»، «المريد/غير المريد»، «الموفي/العاصي»، «المنتصر/المنهزم»...

كلَّما ذُكرت ثنائية، سئل الفريق المعنيُّ أن يورد الدليل من آية أو حديث؛ فمثلا لما قرأنَ: «الوجود: خالق/أو مخلوق»... كان الدليل: «ذلكم الله ربكم خالق كلِّ شيء»، «قل يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله»...

وهكذا استمرَّت اللعبة البديعة، بلا كلل ولا ملل، وبلغت حدًّا من التشبيك والإثارة يتعذَّر وصفه، ويندُر مثله...

التفت أحد المراقبين الدائمين إلى "زئيف"، واللعبة لما تتوقف، فقال له:

"هاه... ماذا تقرأ في هذه اللعبة؟ هل هي طبيعية أم لا؟".

قال "زئيف":

"بكلِّ المعايير المألوفة، هي ليست طبيعية؛ وإني لأحار من قدرة الفتيات على «التجاوز»؛ أي أنَّ المؤثرات المادية لم تعد تحدِّد صورهنَّ الإدراكية، وإنما الذي يحدِّدها هو خريطة إدراكية ذات نزعة متعالية متجاوزة، قيْميَّة..."

ثم التفت إلى المراقبين الآخرين، ففهم من خلال تقاسيم وجوههم أنهم لم يدركوا كثيرا ما عناه من مصطلح «التجاوز»؛ وراح يبسط المعنى مسترسلا:

"قولوا لي بربكم: هل أثر تغيير السجن على ذهنية هؤلاء الفتيات؟"

لم يجب أحد منهم، لكنهم فيما يبدو قالوا بلسان الحال:

"لا، طبعا".

فواصل تحليله:

"لا، طبعا، لم يؤثِّر؛ فلا الضيق هنالك حبس وعيهنَّ؛ ولا البحبوحة هنا أغرتهنَّ بالعزوف عن التفكير... هل فهمتم ما أعني؟"

بتحريك الرأس عرف منهم أنهم ربما أدركوا بعض المعنى، واستنتج على إثر ذلك هذا الاستنتاج:

"إنَّ إسرائيل في حربها لا تملك إلاَّ أن تلعب على وتر «المادة»، و«الحاجات الإنسانية اليومية» للفرد الفلسطيني؛ فإذا ما طغت النزعة المادية عليه، فقَدَ حريته وقدرته على المقاومة، بسبب الرغبة في إشباع نهمه من الطعام، والشراب، والجنس... وما إلى ذلك..."

"نعم، إذا تمَّ ذلك، سهُل علينا التحكُّم فيه؛ وأمكن لنا إذلاله..."

"أمَّا إذا تجاوز متطلبات الحياة اليومية، لم يتسنَّ لنا حينها إخضاعه إلى مخططاتنا؛ إذ ليس في مقدورنا أن نبيعه ونشريه؛ أو نتبع معه سياسة «العصا والجزرة»؛ فهو إذا «تجاوز» المرحلة الجنينية، وتولدت لديه نزعة متعالية، ذات علاقة بقيمه ودينه، صار كائنا «علويا»؛ يحمل في نفسه «نفحة من روح الله» - باصطلاح بعض الدارسين المتدينين -... هنالك فقط لا شيء يثني إرادته، ولا أحد يقدر على ضرب عزيمته؛ حينها لا يمكن لنا ترويضه ولا التأثير فيه..."

قال أحد المراقبين:

"يخال لي أنِّي فهمت، أي أننا سوف لن نتحكم في جيل ميمونة بنفس

السهولة التي كنا نتحكَّم بها على جيل «الأنفة القومية الوهمية» في الستينيات والسبعينيات...“

"زئيف"، مع ابتسامة عريضة علَت وجهه، قال:

”نعم، هذا بالضبط ما أعنيه، ولا يكفي أن نعدَّ خطط السلام المحكمة، ولا أن نخطِّط في إطار الهيئات العالمية الخاضعة أساسا لبرامجنا، إذا لم نتدارك الأمر سريعا، ونردم الهوة عاجلا؛ ذلك أن كلَّ تأثير «خارجي» سيصبح غير مُجدٍ، مع هذه القدرة على توليد المعنى، وعلى تحمُّل المؤثرات المباشرة...“

لم ينس "زئيف" أن ينبه إلى ما حدث في «غزة» من مقاومة لا توصف، ومن انهزام لآلة الحرب والدهاء الإسرائيلي، في مواجهة صدور عارية، وبشرٍ لا يحملون إلاَّ الإيمان بالقضية في قلوبهم...

والاعترافُ عادةً لا يكون إلاَّ في غرف مغلقة، بين من يراد تحريكه للمواجهة الدائمة...

ثم أردف قائلا:

”يجب علينا أن ندخل عقولهم وقلوبهم منذ الصغر، وأن لا نجد حائلا بيننا وبين صغارهم، فالحرب حرب التصوُّرات والمفاهيم والمدارك والقناعات والمعتقدات؛ لا حرب الأسلحة والوسائل والتقنيات والجيوش والمخطَّطات... لقد تغيَّر مدلول الحرب؛ ولكنَّ الكثير لا يزال غافلا... للأسف!“

”إخوتي، إذا لم نتدارك الأمر، فعلى حلم إسرائيل العفاء...“

من الجهة الأخرى، وبعد أيام، واصلت ميمونة والأخريات بحثهن في السؤال العميق: «مَن أنا؟»؛ وقد كانت اللعبة الآنفة مظهرا من مظاهر الجهد القلبيّ والعقليّ الصادق؛ وكانت من إبداع إحدى الفتيات النبهات بعدما وعت فحوى السؤال المحير ومداه...

المهمُّ أن ميمونة دونت على دفترها مصفوفةً؛ كأنها مصفوفة أكبر المكتشفين والمخترعين ذكاء واتقادا، ولقد طوَّرتها مع الوقت، بالحوار والتأمل... إلى أن انتهت إلى تقرير الحقيقة، جوابا على سؤالها، باللفظ الآتي:

"أنا... ميمونةُ... مخلوق... حي... إنسان... روح وعقل ومادة... مُريد... مكلَّف... مسلم... مؤمن... موفٍّ... قادر... مجتهد... راشد... محدود الإرادة... لائذ بإرادة الخالق المطلقة..."

ثم سكتت، وقالت:

"النتيجة بحول الله: منتصر... منتصر... منتصر..."

صوَّر أحد المراقبين هذه الصفحة بعناية؛ ثم حملها على جناح السرعة إلى "زئيف"، لعلَّه يغوص فيها، ويستخرج المعاني والدلالات، ثم يبني القرارات والمخطَّطات... وفي ذات الوقت، كانت ميمونة قد انتقلت إلى سؤالها التالي، بناء على تصوُّرها العبقريّ... ففتحت النبيهة الفطِنة صفحةً جديدة، وكتبت عليها بخط جميل:

إنَّه وقت الفطور الصباحيّ المعتاد؛ حملت ميمونة صينيَّة عليها كؤوسٌ من الشاي، بعدد صديقاتها؛ وفجأةً تعثَّرت رجلُها على حافَّة سجَّادة، فوقعت على الأرض، وساح الشايُ، فتوزع ما بين الأرض والسجَّادة وبعضِ الأثاث في صالة الجلوس...

المقطع الخامس

خالقي ؟

تسارعت الفتيات من حولها، وحاولن التخفيف عنها، وما هي إلاَّ دقائق حتى زال كلُّ أثرٍ لما وقع، ولقد اجتهد شيطان ميمونة في دفعها إلى الغضب، أو حملها على الأسى، أو لزّها بأي فعل أو قول سلبيّ يصدر عادة ممن أصيب بأقل من هذا أو أكثر... لكنَّه عبثا فعل، إذ الفتاة تذكَّرت أنها نسيت قبل حملِ الصينية أن تقول «بسم الله» فاستغفرت الله من ذلك، ثم بسملت وقالت: «يا رب ساعدني وكن معي» فتحول ما بقرارة نفسها إلى راحة واطمئنان، ورضًى كامل بما قضى الله وقدر... وهي تجيل في عقلها معاني حديث المصطفى ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه».

لما التقى الجمع، وكانت ميمونة هذه الأيام تفكِّر في سؤالها الثاني، بعقل حصيف، ووعي منيف؛ جلست الفتيات البَطلات للفطور، وقد أعدن طبخ الشاي ثانية، قالت إحداهنَّ، ووجهها يرشح سرورا وغبطة:

"هل أقرأ عليكنَّ نصًّا جميلا، وجدته في بعض مطالعاتي البارحة".

فكان الجواب:

"طبعا، تعجَّلي، أفيدينا...".

ثم استجمعت قواها وقرأت:

"إنَّ مشكلتنا ليست في أن نبرهِن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ نفسه باعتباره مصدرا للطاقة...

وتغييرُ النفس معناه إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف... وهذا من شأن علم يمكن أن نسميه «تجديد الصلة بالله»... وإصلاحُ هذه النفس يهدف إلى توفير الدافع الداخليِّ لدى جمهور الشعب، تلك الجماهير المتعطِّشة إلى انتفاضة القلب، كيما تنتصر على ما أصابها من خمود...".

بينما الفتاة الملهمة تواصل قراءتها المعبِّرة، سالت دمعة سخينة من وجنتي ميمونة، ولقد أحسَّت أنَّ معنًى مَا كان يغلي كالمرجل في صدرها، وها قد وجد المنفذ، وثار كالبركان نحو الأحاسيس والمشاعر... من خلال هذه الكلمات القليلة، التي تلخص كلَّ الجواب على سؤال: من هو خالقي؟

قالت ميمونة، بعدما مسحت الدمع:

"يبدو أنَّ صاحب هذا النص يفسِّر آية عظيمة في كتاب الله الحكيم"،

ثم صمتت قليلا من شدَّة التأثُّر، وسألت:

"ما هي هذه الآية حسب تقديركنَّ؟".

بعد محاولتين استطاعت الثالثة أن تهتدي إلى الآية، فقرأت قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾.

قالت ميمونة:

"نعم، ألم تلحظن قول الكاتب: «وتغيير النفس معناه إقدارها على أن تجاوز وضعها المألوف؟» فنحن إذن إذا «تجاوزنا وضعنا المألوف» فإننا لن نكون رهائن مساومات وضغوط، ولا يمكن أن نهدَّد أو نباع

أو نشترى؛ من أي جهة كانت، مهما طغت وتجبرت، ومهما أغرت وأحسنت فنَّ الإغراء، أو عذَّبت وأوغلت في صنوف التعذيب..."

ثم أضافت إحدى البنات، وهي حافظة لكتاب الله عن ظهر الغيب:

"رجاءً، لاحظن معي سياق الآية؛ فالذي قبلها هو قوله تعالى: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّه» وهذا يعني أنَّ علاقتنا بالله علاقة ربٍّ رحيم، لطيف، حفيظ، كريم، محبّ... بعبد ضعيف، محتاج، تتقاذفه المخاطر يمنة ويسرة، بحيث إنَّ الأصل أن يصاب بحادثة كلَّ ثانية وكلَّ لحظة، إلاَّ أنَّ الربَّ الكريم، الذي نجده إلى جوارنا دوما: نجده حين الشدة، وحين الرخاء... حين الضعف، وحين القوة... هو دوما إلى جوارنا... إنه لرحمته بنا جنَّد لنا ملائكة تتعقَّبنا من أمامنا ومن خلفنا، وتحفظنا بأمر الله من أمر الله..."

علَّقت إحداهن:

"يا له من تخريج رائع، بوركتِ وجوزيت عنا خير الجزاء، واصلي التحليل لا فض فوك:"

قالت الراشدة الذكية:

"أمَّا ما بعد الآية، فهو قوله سبحانه: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ»؛ وهنا نفهم أنَّ تغيير ما بأنفسنا من الإيمان إلى الكفر، من الخير إلى الشر، من اليقين إلى الشك... كلُّ ذلك مؤذن بنزول السوء علينا، وبكثرة المصائب حولنا... فلن يكون لنا حينها من يتولى شؤوننا وأمورنا، ولن نجد من يضمُّنا إلى كنفه الحنون، ولا من يغمرنا بعطفه المكنون... إلا الله سبحانه وتعالى..."

أضافت ميمونة:

"وجدتُها، ليس المهمُّ أن أعمِل عقلي في الاستدلال على وجود الخالق، ولا أن أتجادل في جزئيات هي من عالم الغيب، لا تعني شيئا، ولا أن أحفظ نصوصا مفرغة من محتواها، وأسمِّي ذلك «كلاما»، أو «عقيدة»، أو «توحيدا»... لكن المطلوب هو أن أحفر بحثا، وأن أفكر مليا، صباح مساء، في ربط العلاقة، وتحسين خط الاتصال، وفتح قنوات التواصل، بين نفسي التي بين جوانحي، وخالقي الذي يملك جميع أمري..."

بنبرة قوية، وثقة في الله شديدة، وإحساس بالمعية الربانية لا يوصف، أردفت:

"أخواتي الطيبات الطاهرات، إنَّ عدوَّنا ليس شيئا إذا كان الله سبحانه بجوارنا؛ ونحن لن ننتصر عليه إلاَّ إذا أعدنا متانة العلاقة بربنا؛ وإلاَّ فلا أمل ولا رجاء، اليوم وغدا... إنَّما هُزمنا يوم انهزمنا من الداخل، فالحرب تقع هنا، مشيرة إلى قلبها، وتقع هنا، مشيرة إلى عقلها... لا غير.."

إعجابا بما قالت، كبَّرت بعض الفتيات، وصفَّقت أخريات؛ دون أن يضبطن تأثرهنَّ، بعفوية تنمُّ عن سعادة وهناء لا مثيل لهما...

وكأنَّ الفتيات قد نسين أنهن سجينات، وتحوَّلن في وقت قصير إلى عالمات عاملات، راشدات مرشدات، باحثات عن الحقيقة، ولسان حالهن يقول:

"لو وفّرتم لشباب الإسلام مثل هذه الظروف، وتركتموهم وشأنهم، ولم تعينوا عليهم أعداءهم، ولم تخونوا أماناتكم وقضيتكم... لو فعلتم

لتوصَّلوا إلى ما توصَّلنا إليه نحن الفتيات، على قلَّة عددنا، وعلى صغر عمرنا... فقط لا تقفوا أمامنا بفلسفاتكم المستوردة، وببرامجكم المنحرفة، وبسياساتكم الجائرة... خلُّوا بيننا وبين الحق والحقيقة...

من وراء الستار، داخل غرفة المراقبة البحثية، فقدَ "زئيف" رُشده، واشتدَّ غيظه، وقد تيقَّن الآن أنَّ ميمونة ليست «نسيج وحده»، وليست بدعا من الشباب والشابات الفلسطينيات المسلمات؛ فلقد تحوَّل افتراضه إذن إلى نظرية، بعيدة الأثر، عميقة الغور...

فتح جهاز الكمبيوتر المحمول الذي أمامه، واتصل بشبكة الأنترنت، ودعا من معه لمتابعة مشهديْن من الفيديو:

المشهد الأول: كتب على "اليوتيب" عبارة «مضحك الجنود الصهاينة كيف يخافون ويهربون» فشاهدوا مقطعا لأقلَّ من دقيقة، يُظهر كيف أنَّ جنودا مدجَّجين بالسلاح، من الطراز المتطوِّر، لمجرَّد صرخات عبثية من شباب فلسطينيين، خاف هؤلاء الجنود وهربوا مهرولين، وضحك مَن بالشارع من المارَّة، حتى إن امرأة – كما يظهره التصوير – صفقت وضحكت بملء فيها...

وانتهى المقطع... فقال "زئيف":

"ألا ترون إلى هذا الخواء عند أبنائنا الجنود؛ إنهم يخافون من ظلِّهم، ونحن اليوم نتردَّد في اتخاذ قرار عند أيِّ حرب تنشب، أو حتى

عند أيِّ مقاومة من الفلسطينيين تبرز؛ لأنَّ شبابنا صار هباء، وفقد المعنى... شبابنا تشرَّب المادة، فصارت حياتُه أغلى عنده من كلِّ قيمة أخرى... حتى أغلى من قضية إسرائيل العظمى... أنى لنا أن نحلم بمستقبل لقضيتنا...؟"

ثم قال لمن معه:

"شاهدوا معي الآن هذا المشهد الثاني، وهو يحوي جلسة لرؤساء العرب، سنة 1990، اتخذوا فيها قرارا بدعوة أمريكا لغزو العراق، يدير الجلسة رئيس عربيٌّ، بطريقة مخالفة لكلِّ الأعراف والقوانين، ثم يشتد الجدل، ويلُوح الكلام البذيء بينه وبين رئيس من بلد آخر؛ ثم يتمُّ التصويت بالموافقة على السماح لأمريكا بالغزو، دون أن تعود الكلمة للأغلبية المطلقة، ودون اعتبار لقانون التصويت بالأغلبية الذي هو شرط في قوانين المنظمة العربية... وتمر الخيانة، بدم بارد، وقلوب فاجرة، ومواقف مخزية..."

قال "زئيف":

"هؤلاء كانوا خصومنا، وهم دمًى بين أيدينا، أو هم عرائس للقراقوز، نفعل بهم وفيهم ومعهم ما نشاء؛ إلاَّ من شذَّ منهم، وهم قلة، وهؤلاء الشواذ ندفعهم إلى السلبية، والمسالمة، والابتعاد عن مراكز القرار؛ فإن أبوا أشغلناهم بفتن وقلاقل داخلية، مستعينين في ذلك بحلفائنا من دول الغرب... والشرق على السواء... باختصار شديد، هؤلاء وأمثالهم ركبوا المطامع، وتشربوا الشهوات؛ فخربت أفئدتهم؛ وخويت ذواتهم ومواقفهم...".

واصل المحقق كلامه:

"أيها الخبراء، أيها العقلاء؛ هلا فكَّرتم مليًّا في تغيير استراتيجياتكم، وقد مُنيتم بهزيمة، من اليوم فصاعدا... على يد ميمونة ومن على شاكلتها، الذين يعدون بالملايين..."

أخذ نفسا عميقا، وقال:

"الأمر جلل... الأمر خطير... الأمر لا يقبل التأخير..."

في الأيام الموالية لهذا الحدث، زار ضيفٌ ثقيل أولئك الفتيات، فأصيب بعضهنَّ بزُكام خفيف وحمَّى، أمكن طردهما ببعض الدواء الذي وفرته طبيبة المركز؛ أمَّا ميمونة، فلِضعف جسدها، ولكثرة تفكيرها، ولشدَّة سهرها؛ كانت حقلا خصبا للانفلونزا؛ تعيث في جسدها فسادا، وتذيقها من الألم ما لا يحتمل، ومما زاد الطين بلة أنَّ الحمَّى ارتفعت إلى نحو الأربعين درجة، وأحيانا تنتابها رعشة من البرد، فتتغطَّى بكلِّ ما معها من أغطية، ولا نفع وراءها؛ فتبقى الساعات الطوال، وبخاصَّة أوان الليل، وهي تتألم بأنين، وتئن بصوت حزين...

ولقد كانت الفتيات يتناوبن على الجلوس إلى جوارها، كامل الوقت، واحدة تلو أخرى، يسلِّينها، ويلهجن بالدعاء لله أن يشفيها عاجلا، ويساعدنها في الذكر وتلاوة آيات من الكتاب الحكيم؛ وهنَّ مع ذلك يحضِّرن لها الكمَّادات المبللة، ويضعنها على جبينها أحيانا،

وعلى صدرها أحيانا أخرى؛ ليخفَّ مفعول الحرارة، ولتجد بعض السكون لتنام بضع دقائق، ثم تستيقظ ثانية، وثالثة.. وهكذا ما يقارب الأسبوع، وهي، وهن، على هذه الحال، ولم تكن أيُّ فتاة تجد طعم المأكل، ولا حتى هدوء النوم، وقد قلَّ الحديث والكلام بينهنَّ إلى أقلِّ القليل؛ وإن كان ولا بدَّ، فهو في ضرورات الحياة والعلاقات، لا غير؛ أمَّا باقي الوقت فهو للصلاة خالص، أو للدعاء الذي لا ينقطع: أن يشفي الله ميمونة، وأن يفرِّج عنها وعن فلسطين، وأن يهب للأمة من أمرها رشدا...

هنا وجدت إدارة المراقبة في مركز المخابرات فرصةً سانحة، وميمونة في نظرها لا تعدو أن تكون موضوعا للدراسة والبحث، هي شيء من الأشياء في مخبر الكيمياء أو الفيزياء، كلب من كلاب بافلوف، أو قرد من قردة داروين، أو فأر للتصرفات الطبية الجينية، ليس إلاَّ؛ فهي ليست إنسانا يتألَّم، ولا روحا يتأوَّه، ولا قلبا يحسُّ... هي مجرد «موضوع للبحث» لا أكثر ولا أقل...

هذه الفرصة تمثلت في إدخال طبيبة محنَّكة، لا في مهنة الطب فقط، وإنَّما في اللعب على أوتار الفكر والقلب؛ هي خبيرة في الحوار والجدل والتشكيك، هذه حِرفتها، وهي بها أدرى؛ اسمها «أرييلا» ومعناه بالعبرية «لبؤة الله».

دخلت الطبيبة على ميمونة، متقمِّصة شخصية المنقذ الرحيم، فلاطفتها في القول، ومسحت على رأسها بهدوء، ثم ابتسمت لها ابتسامة فجَّة، لعلَّ ميمونة تردُّ الابتسامة بمثلها... ثم قالت:

"لا تخافي، هوِّني عليك، سنشفيك بالأدوية، ولست في حاجة إلى طلب العون من أحد، ولا في الاستعانة بأحد... ما رأيك؟"

لهجت ميمونة بالدعاء، وقد تثاقل لسانها، كأنها لم تسمع إلى ما قالته «أرييلا»، فقالت:

واصلت الطبيبة كلامها بخبث، قائلة:

"إذن، لست في حاجة إليَّ، ولا إلى الدواء، ولا إلى الطعام... ما دام ربك هو كلُّ شيء... وما دام هو شافيك، ومطعمك... كما تظنين وتتوهمين؟"

زاد هذا الكلام السخيف ميمونة ألما على ألمها؛ ولكنها مع ذلك تشجَّعت، والتفتت إلى «أرييلا» سائلة:

"أنت، أيَّتها الطبيبة المحترمة، هل تمرضين أحيانا؟ أم تراك لا تمرضين؟".

صعقت الحيرة «أرييلا»، وتردَّدت هل تجيبها بالسلب أم بالإيجاب، وقد بدا لها أنَّ السؤال ملغَّم وصعب، نتيجته غير محمودة العواقب، فقالت:

"ماذا تقصدين من سؤالك هذا؟".

أجابت ميمونة بهدوء واتزان، كأنها لا تنتظر الجواب:

"يقينًا تمرضين، ولا يُعرف إنسان واحد فوق الأرض لا يمرض، هل أنت موافقة لي؟".

قالت «أرييلا» مجارية:

طبعا، أوافقك الرأي...".

أردفت ميمونة:

"وهل كلُّ الأدوية، تشفي جميع المرضى، دائما وحتميا؛ بلا أي احتمال لعدم الشفاء بالدواء؟".

أجابت «أرييلا»:

"لا... طبعا... كم من مريض لم يُشف، وكم منهم كان مآله التعقيد، بل والموت أحيانا (وقد كان ذكرُها للموت يحمل نوعا من التوعد للمريضة، ولذا ركزت عليه، وعيناها تبرقان).."

لم تأبه ميمونة، وهي لا تخشى الموت، بل تدعو الله صباح مساء أن يرزقها الشهادة، فقالت:

"إذن، الدواء لازم، وهو سبب، لكنَّ الشفاء بيد قدرة أعلى منه... والطبيب لازم، وهو نافع وسبب، لكنَّ الشفاء لا يكون إلاَّ على يد قوة أكبر منه وأقدر؛ ومن ثم حتى الطبيب يمرض، وليس كلُّ الدواء يشفي؛ هذه القدرة والقوَّة سيدتي هي قدرة الخالق وقوته، وأنت في دينك السماوي تعرفين هذا؛ أمَّا أنا فأجد دفأه وشفقته بي، وأحسُّ قربه ورحمته أكثر فأكثر حين المرض؛ ولذا فإنَّ الألم الجسماني عندي، تُلازمه طمأنينة روحية قلبية، لا يعرف مداها إلاَّ من جعل الله إلى

جواره، وتخذه ملاذه، واطمأنَّ في كنفه...".

ثم سكتت الشُّجاعةُ، وحوَّلت عينيها المبللتين إلى السماء، وتلت قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

ارتبكت «أرييلا» وقالت:

"أنا أمزح معك فقط، وليس قصدي أن أتعبك، ولا أن أجادلك في معتقداتك وقناعاتك، فأنت حرَّة... لماذا يا ميمونة أخذت المسألة بهذه الحماسة وهذه الجدية؟".

لم تجبها ميمونة، وقد سلَّمتها يدها لتضع عليها السمَّاعة، فقامت بعملية التشخيص، وفي كامل الوقت كانت تدعو وتحمد، وتسبِّح وتستغفر... إلى أن خرجت الطبيبة من الغرفة وودَّعتها، فأجابتها الفتاة بذات البرودة التي ودعتها بها..."

ما هي إلاَّ أيام، حتى خفَّت الحمَّى بحول الله وقوته، وقد سلَّموا بعض الدواء لها؛ وعادت الحيوية إلى الفتيات الصديقات، فتهلَّلت وجوهُهنَّ، واحتفين بالشفاء؛ كأنَّه نصرٌ مبين حازه جيش عظيم، في مواجهة عدو ظالم غشوم لئيم...

في جلسة طيبة، وقد طاب السمر، أرادت إحدى الفتيات أن تعيد المياه إلى مجاريها، والابتسامةَ إلى الثغور؛ فدخلت الغرفةَ بلباس مسرحيٍّ، مع حركات تمثيلية جادَّة، بين يديها ورقة تقرأ منها نصا:

"إنَّ مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ نفسه باعتباره مصدرا للطاقة...".

تلقَّت الفتيات اللقطة بشعور مـزدوج، فيه الكثير من الحمد والشكر لله، وكذا الرغبة العارمة في أن يقلن لصديقتهن: «أحسنت... وأجدت... كم أنت ممثلة بارعة...»، وفيه نوع من التهكم على سخافة الطبيبة «أرييلا» التي أرادت أن تشكك ميمونة في إيمانها، فالتطمت بصخرة من اليقين، كسرت كبرياءها، ومزقتها شرَّ مُمزَّق...

في هذا الجوِّ الملائكيِّ الهنيِّ، وقد تقدَّم الليل أشواطا، قامت ميمونة للنوم، وقام الجميـع، فلهجت بالدعاء إلى السميـع العليم، القريب المجيب:

يارَبِّ ساعِدني وكُن معي

ثم ردَّدت الفتيات الأخريات على إثرها بصوت واحد موزون:

يارَبِّ ساعِدني وكُن معي

المقطع السادس

تنادت الفتيات صباح يوم، أنَّ مسؤولا كبيرا، حسب هندامه فيما يبدو، وحسب الحراس الذين يحيطون به، قد دخل الشقَّة، وأمر جميع السجينات بالمثول أمامه على الفور، في تجمُّع على السريع... وما هي إلاَّ دقائق معدودة، حتى كنَّ جميعا أمامه، في وقفةٍ مضبوطة، يستمعن إلى ما يقول باهتمام بالـغ، فقال:

"اليوم، على الساعة الثانية ظهرا، أنتنَّ في موعد لزيارةٍ من أهلكن، فقد أرسلنا إليهم مَن يدعوهم، على أن لا يفوق عدد الزوار ثلاثة أفراد من العائلة، وستسغرق مدَّة الزيارة ساعةً كاملة؛ لكن شريطة أن لا تُخبرن أحدا بما أنتن فيه، وأن تستعملن ألفاظا مثل «نحن بخير»، «كلُّ شيء على ما يرام»، «لا ينقصنا شيء»... ولا تصِفن إقامتكنَّ، ولا البرنامجَ اليوميَّ، ولا التحوُّل مما كنتن فيه إلى ما أنتن عليه... وإن فعلت أيٌّ منكن شيئا من ذلك، فإننا سنقاطعها، وننهي الزيارة، وسوف تكون العواقبُ غير محمودة الجانب... هل فهمتن؟".

لم تُجب أيُّ فتاة بلسان المقال، لكن بالأعين وتحريك خفيف للرأس عرف أنهنَّ موافقات طبعا؛ وقد وعين ما يقصد، ومِن عجب أنهنَّ لم يُبدين أمامه أيَّ مشاعر للسرور والفرح... إلى أن خرج هو ومن معه، فالتفتت الفتيات بعضهن إلى بعض، وتعانقن، معبِّرات عن الشوق المغروز في قلوبهنَّ، نحو الأهل، أمهاتٍ وآباء وإخوة وأخوات؛ فقد مرَّت عليهنَّ الشهور الطوال لم يلتقين بأحد، وليس لديهنَّ أي خبر عنهم، وهم في الحقيقة، صباح مساء محلَّ حنين وذكر، ودعاء وأمل... لا ينقطع...

وقفت ميمونة أمام باب غرفة اللقاء، ترتادها بهدوء حارستان، قلنَ لها:

"داخل هذه الغرفة ثمَّة بعضٌ من أهلك، هيا تشجعي وادخلي عليهم، ولا تضيِّعي الوقت".

وقفت، وفي ثوانٍ قليلة جالت على خاطرها آلاف الذكريات، من الماضي العذب، يوم كانت طفلة صغيرة، ويوم انتقلت إلى سن البلوغ؛ ثم إلى حين اختطافها، منها إلى آخر نظرة إلى أمها، وإلى آخر وداع لأبيها؛ دون سابق تحضير، وإلى مُحيَّا أخيها الصغير الذي كان يلبس لباسا جديدا، قصد زيارة الأخوين الحبيبين العزيزين، اللذين لا يزالان في عداد المجهولين، بالنسبة لها...

وقفت، وجاشت عواطفها، فسمَّت الله واستغفرت، ثم قالت: «يا رب ساعدني وكن معي»، ثم فتحت الباب؛ فإذا بوالدها منتصبًا واقفا، في هدوئه المعهود، والأمُّ على الكرسيِّ في حيرة ووجوم، والأخ صلاح الدين، يطير فرحا، فما لبث أن عانق أخته بحرارة وشوق ملتهب، ثم عانقها ثانية وقبَّلها... وقال:

"أختي الحبيبة، لكَم أنا مشتاق إليك، لماذا غبت عنا كل هذا الوقت؟".

لم تجب ميمونة، ولكنَّها ضمَّته مرة أخرى إلى صدرها بحرارة

ودفء، وكثيرٍ من الدمع الرقراق الوضيء، ثم وضعته... وتوجَّهت نحو أمِّها، وقد قامت من كرسيِّها، وبلا لفظ ولا صوت ولا كلام، أخذت كلتَا يديها... قبَّلتهما... ثم أدْنَتها من صدرها الحنون، وضمَّتها ضمَّة حبٍّ وحنان، لو وزعت على أطفال العالمين لوسعتهم... ضمَّتها؛ وكأنها لا تزال طفلة صغيرة في سنيِّها الأولى... ضمَّتها؛ ثم أعادت ضمَّها مرَّات... كأنَّها لا تريد أن تفقدها مرَّة أخرى، أو لكأنها تتدارك كلَّ ما فات... ثم لولا أنَّ أباها كان ينتظرها بيدين مشرَعيتن، لما أطلقتها...

التفتت إلى والدها، وقد تجمَّل كثيرا، وحاول إخفاء ضعفه كعادته، ليزرع في قلب ابنته الثقة... ثم ضمَّها إليه، وقبَّلها، وقال:

"افتقدناكِ يا ابنتنا الغالية، الدار بدونك قبر، لولا أننا رضينا بقضاء الله وقدره...".

ففاضت عيناه دموعا، ولم يواصل الجملة... ثم بعد دقائق من الصمت تشجَّع، فقال:

"كيف حالك؟".

ميمونةُ، مع ابتسامة حلوة علت شفتيها، أجابت:

"بخير والحمد لله، لولا أني في شوق إليكم... كلُّ شيء على ما يرام، راضية شاكرة حامدة...".

تجاذب أطراف الحديث معها لدقائق؛ وصلاح الدين أحيانًا يشارك بما عنَّ له من قولٍ أو رأي؛ أو خبر جديد يحاول أن يفرح به أخته...

أمَّا الأمُّ الجبلُ، الشامخةُ السامقة، فكانت بلُغة العين تعبِّر أحسن التعبير، وبلسان القلب تجيد أبلغ البيان...

وانتهت ساعة اللقاء سريعا، كالبرق مرَّت، لكأنَّها لم تبدأ بعد؛ فدخلت الحارستان، مع بعض التأخُّر المقصود، وبهدوء استجابت الطفلة لطلبهنَّ بالانصراف... دون تردُّد خطت خطواتها وجهة قدرها المحتوم؛ حتى لا تترك لدى والديها انطباعا بالقلق، فيزداد ألمهما... خرجت دون أن تودّع، وأغلِق الباب وراءها... وها هي على حافَّة سريرها... دامعةً، ذاكرة الله، مستغفرة، متألمة؛ لكنَّها مع ذلك راضية، وقد أعطت لما هي عليه معنى الجهاد في سبيل الله، وطلبِ الشهادة لوجهه الكريم، والهجرة إليه سبحانه... فامتلكت الروحَ والقلب والعقل لتخطو بهما خطواتها في سجل الخالدين...

تنهَّدت، ثم بصوت مرتفع نسبيا، ويداها نحو السماء، قالت:
"الحمد لله على ما قضى وقدَّر...".

كان "زئيف" ومساعدوه ينتظرون هذه اللحظة باهتمام بالغ؛ لحظة بحث ميمونة في سؤالٍ من أعقد أسئلتها المحيِّرة، ألا وهو السؤال عن «الإنسان». ولذا راحوا يجمعون ما عندهم من معارف، ويضيفون إليها مطالعات جديدة، وبحوثا من الأنترنت؛ ليتمكَّنوا من قياس ما ستولِّده ميمونةُ وصديقاتها بما جادت به قريحة البشرية،

منذ قرون... إلى يوم الناس هذا...

ولقد تقرَّر لديهم أنَّ الإنسان ما هو إلاَّ حلقة أخيرة في سلسلة التطوُّر، عبر تاريخ الطبيعة، ولذا فإنَّ من خصائصه أنه يمشي على قدمين، ويمتلك دماغا متطوِّرا، وله قدرة على التفكير المجرَّد، وعلى استخدام اللغة، وعلى الإحساس والشعور الداخليِّ الذاتيِّ... فهو بصورة مبسطة، الكائن الحيُّ الوحيد الذي يشعل النار، ويرتدي ملابسه بيديه، ويتحاور مع من حوله، ويطرح الأسئلة... الخ.

ومِن أبرز المرجعيات التي اعتمدوها في تحليلهم هذا، يقف داروين بنظرية التطور في مقام مرموق، هذه النظريةُ التي تؤسِّس المعتقد في التفكير الغربيِّ عموما، بل وحتى في الفكر اليهودي المستغرب فلسفيا ومنهجيا... ولا يغيب عن مصادرهم إنسان نيتشه «السوبرمان»، ولا إنسان ماركس الاقتصادي المادي الجدلي؛ ولا إنسان فرويد الجنسي الشهواني...

ولقد توقف "زئيف" كثيرا في عبارة قرأها من كتاب بعنوان «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، لمؤلفه «فرانسيس فوكوياما»، مما جاء فيه:

"نحن نفتقر إلى مفهوم للإنسان كإنسان، يسمح لنا برؤية عيوبه الممكنة".

فراح "زئيف" يقلِّب العبارة كلمة كلمة... ويطالع السياق، ثم يعيد المطالعة، لعلَّه يفهم مغزى المؤلِّف، وانتهى أخيرا إلى أن «أول بديهة»

عن «الإنسان الموضوع» لا تزال مستعصية على الإدراك؛ ولِذا يقف «الإنسان الباحث» أمامها حائرا، ولا يستطيع أن يعطي لها مفهوما واضحا، ولا أن يحدد لها قولا فصلا...

ثم إنَّ "زئيف" يقرأ لباحث عربيّ، متخصِّص في الدراسات اليهودية والصهيونية، يحترمه أشدَّ الاحترام، ويبغضه أشدَّ البغض: فهو يحترمه لأنَّه عالم بحقٍّ، وهو يكرهه لأنه استطاع أن يضع الفكر اليهودي على طاولة التشريح، ويكتشف النماذج الإدراكية، والبراديمات التي تحكمه، أي أنه اكتشف «شفرة» فهم الظاهرة؛ وهذا ما كان من اختصاص اليهود لعقود، تفوَّقوا فيه وبزوا أعداءهم...

راح "زئيف" يقلِّب موسوعة هذا العالم، ويبحث عن «الإنسان»، وعن كلِّ ما يمتُّ إليه بصلة؛ فوجد الموسوعة كلَّها تحوم حول «الإنسان»؛ لكنه على دفتر صغير دوَّن عبارتين:

- الأولى: «الإنسان الطبيعيُّ الماديُّ هو ظاهرة طبيعية، وليس ظاهرة تاريخية حضارية متميِّزة... ولذا فهو ليس له إرادة مستقلَّة، ولا حيِّز مستقل، يعيش في اللحظة المادية المباشرة، والواقع الماديِّ المباشر؛ فهو مستوعَبٌ تماما في البرنامج الطبيعي/المادي/الحتمي؛ فلا يعرف أية انقسامات أو صراعات أو ثنائيات أو ثوابت أو منطلقات أو كليات؛ إنسانٌ بلا إرادة ولا حرية ولا مقدرة على التجاوز؛ كُل الأمور بالنسبة له

محسوبة تمامًا، ومقرَّرة من قبلُ، فهو أحاديُّ البعد، يمكن حوسلته (اتخاذه وسيلة) وتوظيفه وبرمجته بسهولة ويسر».

أمَّا العبارة الثانية التي دوَّنها "زئيف" بعناية فائقة، فقول صاحب الموسوعة:

۞ «الإنسان الاقتصادي، والإنسان الجسماني، هو إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها، وإنما ينتمي إلى عالم الاقتصاد، أو هو خاضع للحتميات الغريزية، وهو لا يعرف الخصوصية، ولا الكرامة، ولا الأهداف السامية التي تتجاوز الحركة الاقتصادية، أو الممارسة الجنسية، وهو يجيد نشاطا واحدا هو البيع والشراء، أو إشباع الغريزة إلى أقصى حد، وبلا ضابط».

راح المحلل مع فريقه يسقطون كلَّ كلمة، وكلَّ جملة، على واقع إسرائيل اليوم، وعلى واقع الغرب، ثم على المسلمين، وعلى العرب، وبالخصوص على الفلسطينيين، في مراحلهم وتقلباتهم؛ وأخيرا على ميمونة وأخواتها... فتبحَّروا، وذهبوا بعيدا في الإسقاط، حتى نطق أحدهم وقال:

"أخالنا هنا في جامعة، ننتظر مناقشة أطروحة للدكتوراه، في أعقد العلوم، ولسنا في قاعة للمعاينة والاستخبار، موضوعنا صبايا لم يتجاوزن بعد سن المراهقة!"

أراد "زئيف" أن يردَّ ويدلِّل، ويدافع عن الخيار، فقال له صاحب

المقولة، مباغتا:

"أنا موافق تماما، أعرف ما تريد أن تقول، وأنا لست أشكك، ولكني فقط أمزح!".

سكن روع "زئيف"، الذي أخذ الأمر بجدية بالغة، وصار حياله عصبيا أكثر من المعهود؛ وابتسم ابتسامة متكلفة، ثم ألقى نظرة إلى الشاشة أمامه، ليرى كيف تتصرف العيّنة، موضع البحث....

كان الوقت ضحًى، والجوُّ داخل الشقَّة يشبه جوَّ المعبد، أو جوَّ المخبر، الجميع في تركيز وخشوع، بين مطالعة وتأليف، وتلاوة وحوار؛ والعقل من طبعه أن يشحَّ إلاَّ على من أعمله وأجهده، فهو لا يسخو على من يشتته ويُلهيه فيما لا يعني؛ ومن بين الباحثات العبقريات كانت ميمونة جالسة إلى مكتبها، متردّدة في كتابة أيِّ حرف أو كلمة أو جملة، بعدما طرحت السؤال الكونيَّ بوضوح؛ ثم عرضته على زميلاتها، يقلِّبنه يُمنة ويُسرة، كلُّ واحدة منهنَّ تُبدي ما لها من رأي في الإجابة، أو في مقاربة الإجابة على الأقل.

على هذه الشاكلة انصرمت الأوقات، وطويت الأيام؛ حتى كاد المراقبون ييأسون، ويسجِّلون حكما مؤكَّدا، وهو أنَّ السؤال أكبر من عقل الفتيات...

فجأةً، فتحت ميمونة دفترها المزركش الجميل، ثم نادت بصوت

مرتفع: «بسم الله، توكَّلت على الله»، فشرعت تكتب هذه العبارات:

۞ «أنا ميمونة... إنسانٌ؛ بجميع الخصائص التي يتصف بها الإنسان؛ وأنا الآن أبحث في حقيقة الإنسان، وأجهِد فكري في استجلاء أبعاده، وأسأل عن الإنسان، وأريد أن أجيب عن الإنسان... ولا شك أني سأكون مثل شريحة تحت المجهر تريد أن تسلك سلوك العالِم الذي ينظر في المجهر... وهذا تجنٍّ كبير، وتجاوز للحد خطير...».

ثم توقفت عن الكتابة، وأخذت نفَسا عميقا، ومن وراء الستار كانت قلوب الباحثين أشدَّ فراغا واضطرابا، كأنها وضعت على جناحي طائر...

فواصلت الفتاة كتابتها:

۞ «إذن، أنا الإنسان العيِّنة، لا أملك إلاَّ مصدرا واحدا لأعرف به نفسي وإنسانيتي، وهو مصدر متعالٍ مهيمنٌ؛ لا يخضع لمؤثرات البحث، ولا تطاله أخطاء الباحث؛ باختصار شديدٍ: مصدِري في معرفة الإنسان هو خالق الإنسان نفسه، العالم بظاهره وباطنه... فهلا سألته عن الإنسان، أي عن مخلوقه؟».

ثم أردفت، فكتبت بخط واضح جميل:

«... ولقد فعلتُ ذلك من خلال كتابه الموثوق، وأجابني بسورةٍ

كاملة، جعل لها عنوانا عريضا، هو: «سورة الإنسان»، وأجابني في كامل القرآن بمعان ثرَّة لا حدَّ لها ولا آخر... ولو اجتمع البشر، وجميع العلماء، على صعيد واحد، وكتبوا ميثاقا عريضا، مثل ميثاق «حقوق الإنسان»، يصفون فيه الإنسان، ويحدِّدون معالمه، ويفصلون حقوقه وواجباته؛ لما وفّقوا للصواب؛ ذلك أنهم جميعا، مِن جنس الإنسان، وهم جميعا الشريحة في المخبر، وليسوا العالم المطل في المجهر...».

لم تتمالك ميمونة، وقد اهتدت إلى المخرج بعد طول بحث وعناء، فراحت تدعو الفتيات إلى اجتماع عام؛ ثم طالعت أمامهن ما كتبت، وقالت:

"ماذا لو رسمنا معالم الإنسان من خلال سورة الإنسان، ما رأيكنَّ؟".

جاءت الموافقة على الفور، وبدأ البناء المعرفي والتحليل، والمقارنة، والمحاورة والمناظرة... مما يجعل كاتب هذه السطور وقارئها يغبطهنَّ على ما هنَّ فيه من نعمة لا توصف، وقد حرمها الكثيرون، ممن هم في بحبوحة من العيش، لكن في ترهُّل من الفكر والحسِّ والشعور...

كان لدى "زئيف" بعض الاطلاع على القرآن، وعلى التفاسير، ولديه قناعةٌ جازمة أنَّ التفاسيرَ كلاسيكيةٌ، تتعامل مع اللفظ واللغة غالبا، خارج دائرة المعرفة والزمن والحضارة؛ ولذا فهي – في رأيه

– لا تولِّد لدى قارئها إلاَّ حفظا للمعنى العامّ للآية، فهي لا تحرّك فيه كوامن العقل، ولا مكامن القلب، ولا تدفعه إلى الحركة والفعل والإيجابية...

ولقد كان اعتقاده هذا صائبا في بعض جوانبه؛ لكنَّه في تعميمه وإطلاقه لم يتَّسم بالعلمية والصدق والصواب؛ ولعلَّه تأثر في سياقه بما طالعه من علماء حداثيين، لهم شهرة مطبّقة، من أصول عربية، تجاوزوا الحد في الحكم على كلام الله، وعلى التفسير، بما يترك اللبيب حيران...

ولكن "زئيف"، لم يكن ينتظر من ميمونة وصديقاتها أن يسلكن المسلك نفسه، أو ما يقرب منه، وقد خبر ذكاءهن وفطنتهن، فصدق حدسه، وثبتت فراسته...

تلت إحداهنَّ بخشوع سورة الإنسان كاملةً، ثم اقترحن أن ينتهجن منهجا مختلفا، بحيث تذكر الواحدة مفهوما ودلالة عن الإنسان؛ ثم تقرأ الأخرى الآية الدالة على ذلك، دون اشتراط الترتيب، فبدأ التمرين:

«بدايةُ الإنسان عدم، ونهايته خلود...»

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

«الإنسان مخلوق لله، وإرادته تابعة لإرادته:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإنسان مخيَّر، وهو الذي يقرر مصيره بإيمانه وعمله:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

وما هي إلاَّ أشواط على هذا المنوال؛ حتى لاحظن أنَّ مقدِّمة السورة وخاتمتها مربوطتان برباط موضوعيٍّ عجيب، كأنَّ الواحدة منهما بيان وتفسير للأخرى، أو هي تكملة، أو تخصيص... وبين المقدِّمة والخاتمة وصف للجنة بتفصيل دقيق، يورد فيه أدق الجزئيات، مثل «كون الآنية في الجنة من فضة»، و«كون العين تسمى سلسبيلا»... ثم إن وصف النار يكاد يختفي من هذه السورة العظيمة...

ولم تتوقَّف الفتيات الموهوبات عند هذا الحدِّ، بل رُحن يستنبطن الأفعال والواجبات والأوامر، التي عليهن الالتزام بها، بناء على إدراكهنَّ لمفهوم الإنسان؛ حتى لا يتعثَّرن عند عتبة المعنى والنظر فقط، بل ينتقلن إلى الفعل والحركية؛ ولقد قرأن يوما أن من أبرز خصائص «نموذج الرشد» أن يعقد خطًّا فاصلا بين الفكر والفعل...

وشعارهنَّ البارز والناصع، هو قول أحد أبرز المفكرين العالمين العاملين، في هذا الشأن:

«نحن نلخِّص خطَّ كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإنَّ وجودنا الحقيقيَّ لا يتم إلاَّ عبر الحركية والفكر... حركية وفكر قادران على تغيير الذات والآخرين. والواقع أنَّ كل كيان ثمرة حركة ومجموعة من المبادئ والتصورات، كما أنَّ بقاءه مرتبط باستمرار هذه الحركة وتلك التصورات».

وبدأ سيل الأفعال يتنزل دفَّاقا من أفواه الفتيات؛ حتى غمر الكون حياةً، والحياة معنًى، والمعنى عمقًا، والعمق أصلاً...:

- «نحن مبتليات؛ علينا أن نصبر لوجه الله».
- «نحن مخيَّرات؛ علينا أن نختار الشكر على الكفر
- مصير الكفار لا يطاق؛ علينا أن نتجنب فعالهم».
- «مصير الأبرار نعيم دائم؛ علينا أن نأتي فعالهم».

بهذا الأسلوب قطعن الأشواط، إلى أن وصلن إلى آخر السورة؛ فشرعن يستخرجن الأوامر مباشرة:

- فَاصْبر لحكم ربك.
- ولا تطع آثما أو كفورا.
- واذكر اسم الله بكرة وأصيلا.
- ومن الليل فاسجد له.
- وسبح الله ليلا طويلا.

طال وقت الجلسة الإيمانية القرآنية الطيبة، وقرُب الليل من نصفه،

فقامت الفتيات على بركة الله، وتوضَّأن، ثم راحت كلُّ واحدة منهنَّ تستجيب لأوامر ربِّها، وهي تعي أنها معنيَّة بما تلت من آيه الكريم؛ فتذكر اسم الله، وتسبح الله، وتسجد له... ولقد تقرَّر لديهنَّ أنَّ الإنسان إذا عرف قدره، وعرف قدر خالقه، لم يضيِّع ساعة من نهار أو ليل، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر، بل إنه يتفانى في حبه، وعبادته؛ ولقد صدق القائل: «اعرف نفسك تعرف ربك»؛ ويجمل أن نضيف: «اعرف ربك تعرف نفسك»... هما وجهان للحقيقة لا مفر منهما...

بعد أمَّة ووقت جميل، ألقت ميمونة الغطاء على جسدها المنهك بالسهر، ولكنَّ روحها السعيدة بقيت ترفرف في الآفاق، وتغني أغنية الخلود والوفاق، ثم أطفأت الأضواء، وحمدت العزيز الخلاق، وقالت:

"أنا ميمونة الإنسانُ... أسلمت نفسي إليك يا ربِّ؛ ووجَّهت وجهي إليك يا ربِّ، وفوَّضت أمري إليك يا ربِّ، وألجأت ظهري إليك يا ربِّ، رغبة ورهبة إليك يا ربِّ، لا ملجأ ولا منجى منك إلاَّ إليك يا ربِّ؛ آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت...".

ثم غمرت السعادةُ الأبدية روحَها الفيَّاضة، فوجدت روحا وريحانا من الجنَّة نزل من علياء الماوراء، ليزور القلوب الضارعة في أعزِّ أوقاتها، وعند اكتمال نفحاتها؛ فنادت بصوت دفاق مطمئنٍّ:

يارَبِّ ساعِدني وكُن معي...

المقطع السابع

الشاطئ والبحر ؟

سريعا اقترب الحول من الدوران؛ وكان بالنسبة للفتيات امتحانًا عسيرًا، دون علم منهنَّ ولا دراية؛ حقَّقن فيه نصرا مبينا.

أمَّا "زئيف"، المحقِّق الكهل المحنَّك، فقد أجهد فكره، ووصل بنهاره ليلَه، حتى صار كلُّ شيء بالنسبة إليه هو ميمونة وأخواتها...

ها هو الآن، أمام دفتره وأوراقه ومذكِّراته، وملاحظاته واستنتاجاته؛ يجلس ليكتب التقرير العامَّ؛ ثم ليُعرض على لجنة التحقيق بعد أيام؛ بغية اتخاذ القرار الحاسم، في شأن عيِّنة البحث؛ ولقد سبق له أن اقترح تخلية سبيلهنَّ، والإفراجَ عنهنَّ، ولكنَّ ذلك كان مجرَّد اقتراح سابق لأوانه، لا يرقى إلى مستوى القرار النهائي في عرض لجنة الخبراء والضباط...

أوسد "زئيف" رأسه وكلتا يديه إلى كرسيه الفاخر، وغطس ذاكرته وفكره في بحر الزمن، من يوم سمع اسم "ميمونة" لأوَّل مرَّة، في تلك الجلسة الحاسمة، وفي ذلك اليوم المشهود؛ إلى يومه هذا، وقد آن أوان القرار الأخير بشأن ميمونة وزميلاتها؛ ولقد كانت كلُّ مقترحاته تؤخذ على محمل الجدِّ، وتلقى القبول والاحترام، بل والتنفيذ الفوري كذلك... فهو إذن، المقرِّر وهو الآمر، وهو صاحب الكلمة الأخيرة والقول الفصل؛ ما سيقوله سيكون، وما يرفضه لن يكون... فمصير هذه الفتاة رهن إشارته، ومصير الفتيات الأخريات في قبضة اختياره؛

إن شاء واصل بحثه فيهنَّ، وإن شاء أوقف مسار البحث وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه، وإن شاء أنهى القضية بأسلوب دراميٍّ تراجيديٍّ مفاجئ...

بينما هو كذلك، إذ دخلت عليه زوجته، وهي تحمل صينية فيها قهوةٌ ومشروبات أخرى وبعضٌ مِن الحلوى؛ إلاَّ أنه لم يحسَّ بوجودها؛ فوضعت الصينيةَ على مكتبه، وجلست إلى جواره، وهو لم يحسَّ بوجودها؛ ثم أخذت بيده برفق، فسألته بهدوء:

"فيم تفكر يا زئيف؟"

لم يجبها... ثم أعادت السؤال كرَّة أخرى، بصيغة أكثر دلالا؛ فلما أفاق من شروده، كان يتمتم قائلا:

"ميمونة... نعم، ميمونة... ومصير إسرائيل... لا بدَّ لهذا الكابوس من نهاية... لا بدَّ من هذا الكابوس من آخِر...لا بدَّ لهذا الكابوس من قرار حاسم".

بعد احتساء القهوة، خطَّ تقريره، بتركيز شديد؛ وذيَّله بعبارة قاسية وحكم صارم، جاء فيه:

«أرى أن تعاد الفتيات إلى السجون التي كنَّ فيها... أمَّا ميمونة؛ فلا بدَّ من إعدامها وتصفيتها... لا يمكننا أن نمهلها أكثر».

عرَقَ، وتمتم، ثم تأفَّف... وخربش على العبارة خربشة عنيفة؛ ثم قطع الورقة الأخيرة من التقرير؛ وجاء بورقة جديدة، وهو مضطربٌ

منفعل... فكتب عبارة أخرى، ورد فيها:

«أرى إعادة الفتيات إلى السجون التي أتين منها... أمَّا ميمونة، فالحكم فيها أن يقام عليها غسيل للمخِّ؛ حتى ننهي أمرَها، ونبعد الخطر عن إسرائيل؛ فهي قد صارت شبحا ونذيرَ شؤمٍ».

ثم تشجع، ووضع ختمه الدائري الأحمر، وعليه توقيعه بلون مغاير:

المحقق "زئيف".

ورغم أنه لم يكن راضيًا تمام الرضا عمَّا انتهى إليه؛ إلاَّ أنه أقرَّ ما توصَّل إليه، ذلك أنه جمع بين عاطفتين متناقضتين: عاطفة العالِم المحنَّك، المحترِم لموضوعه ومادَّة بحثه، العارف بقدر الأمور؛ وعاطفة المغتصب المستبِدِّ، الحاقد الحانق، الراجي إزاحة كل فلسطين من جذورها...

وها هي العاطفتان تستيقظان فيه، وتتصارعان، ثم ترغمانه على هذا الموقف الصلب، الذي تغلَّبت فيه النزعة الثانية على الأولى...

نعم، رغم أنه لم يكن راضيًا كلية، إلاَّ أنه لم يتمكَّن من التغلب على كبريائه، فقدَّم التقرير إلى لجنة التحكيم، بهذه الصيغة الدرامية الحانقة المتشنِّجة..

داخل قاعة المداولات؛ جلس الرئيس والمحقِّقون والضباط؛ في شغفٍ وترقُّب شديدين؛ لمعرفة ما توصَّل إليه "زئيف"، بعد عام من

المعاينة والتحقيق؛ وللتأكُّد من مدى تحوُّل افتراضه إلى نظرية في الأمن القوميّ؛ ذلك الافتراض الذي جعل ميمونة وصديقاتها عيّنة لمعاينة الحالة الذهنية لشباب المسلمين عموما، وللشباب الفلسطينيين بالخصوص... ذلك الافتراض الذي يعتبر أمن إسرائيل مهدَّدا، ووجودها صار قاب قوسين أو أدنى...

الجميع إذن يترقَّب، وينتظر ما يجب اتخاذه من قرار حكيم في هذا الشأن الجلل العظيم...

دخل "زئيف" القاعة، وكان آخرَ الحضور جلوسا، فلَمْلَمَ أوراقه، وأسرع في ترتيبها، وقد بدت علامات الاضطراب عليه؛ فأخذ مكانه، وبدأت المداولات المنتظرة، ثم استمعوا إلى التفاصيل جميعها، ولقد قرؤوا من قبلُ العديد من التقارير الجزئية، التي تصلهم رأس كلِّ شهر، وخبروا ما تحمل من مفاجآت ومنعرجات... إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة، فتلا "زئيف" ما لم يكن منتظرا ولا متوقَّعا، وقرأ على المجموع عبارته المدوية:

«أرى إعادة الفتيات إلى السجون التي أتين منها... أمَّا ميمونة، فالحكم فيها أن يقام عليها غسيل للمخِّ؛ حتى ننهي أمرَها، ونبعد الخطر عن إسرائيل؛ فهي قد صارت شبحا ونذيرَ شؤمٍ».

نزلت العبارة كالصاعقة على قلب الرئيس، ولم يستطع أن يعلِّق بكلمة، أمَّا الضابط المشاكس، فكان في قرارة قلبه، وبنبرة سخرية

واستهزاء انتصبت علاماتُها على وجهه؛ كان يقول بخبث ومكر:

"ألم أكن على صواب؟ ألم نضيِّع عاما كاملا، ومالا كثيرا في هذه السخافات؟..."

وبلهجة حادَّة جادة التفت "زئيف" إلى الضابط أولا، ثم إلى الرئيس ثانيا؛ فقال:

"أعرف ما يعتلج في صدوركم، وما يختلج في ذهن كلِّ واحد منكم، أيها السادة المحترمون... وأعرف أنَّ النتيجة والقرار يفتقدان المنطق المحكم، والتماسك اللازم؛ لكنني أصرُّ على أنَّ الافتراض تحوَّل إلى نظرية؛ وأنَّ المعاينة والبحث كانا من النفع والجدوى بمكانٍ، نتيجتهما إيجابية مائة في المائة، وبغير البحث والصبر لم نكن لنتوصَّل إلى هذه النتيجة الخطيرة؛ ومن ثم لزم اليوم أن نعيد النظر في أمن إسرائيل، وفي استراتيجياتها المستقبلية... أيها المستمعون الخبراء المسؤولون..."

وسكت، ثم أخذ نفسا عميقا، وقال:

"أمَّا ميمونة، هذه الفتاة العجيبة، فلقد استطاعت أن تختبر صبري، وأنا كنت أزعم أني أختبرها؛ ولقد وضعتني في مواقف حرجة، دون علم منها، طار على إثرها لبِّي، واستشطتُ غضبًا مرَّات ومرَّات... ولقد عِشت صراعا داخليا مريرا بسببها... ولا أزال إلى اللحظة أجد فوارا كالبركان داخل أحشائي... يكاد يهلك كلَّ مناحي حياتي!...".

ثم سكت أخرى، واستجمع قواه، وقال:

"بصراحة، لقد كانت أقوى منِّي، وأقدر على المواجهة مما كنت أتصور ابتداء... ولهذا لم أتمالك، ووجدت أني لا أستطيع مواصلة الصبر

في مهمَّتي معها، ولا مع صديقاتها؛ ولقد أعرضتُ عن اقتراح تصفيتها جسديا؛ ذلك أني بحقٍّ أحترمها، وأتعاطف معها موضوعا للبحث، ومادة للدراسة؛ والحقُّ أني أجد مهابة ورهبة في قلبي حيالها، ولا أعرف سبب ذلك...".

ثم تنهَّد، وواصل كلامه المسترسل، والمتدفِّق كالشلال الهادر الهامر:

"آه، لو كنَّا اليوم نملك شبابا على شاكلتها؛ إذن لملكنا العالم برمَّته، ولأحكمنا قبضتنا على كلِّ الأمم، بلا استثناء... ولكن، أسفا، ثمة شيء بدأ يتغير، ثمة مستقبل بدأت معالمه تتبدل...".

رُفعت الجلسة، مع الموافقة على هذا القرار الظالم الجائر المتكبِّر، ليوضع حيِّز التنفيذ، بعد أسبوع من هذا التاريخ؛ وكانت الظروف جميعُها تسير على هذا المنوال؛ وميمونة والفتيات الأخريات، في شغل بشأنهنَّ وإيمانهنَّ، لا يعرفن شيئا ممَّا يحاك لهن في ظهر الغيب، ولقد واصلن مسيرتهنَّ الخالدة نحو النضج والرشد، وبلغ الإيمان واليقين منهن ذروته؛ وما الذي يضيرهنَّ وقد استعدن صورة الصحابيات الجليلات والنساء الخالدات؛ ورسمن لأنفسهن صورة شبيهة؛ لن يزال الزمن يذكرها، ويزيِّن بها جيد هذا العصر؛ ولن تزال الأيام تعيِّر بها وبهنَّ كلَّ زمن خائر، وكلَّ امرأة منهزمة، وكلَّ رجل ذليل... إلى يوم الدين...

حقًّا، لقد سجَّلن بجدارة أسماءهنَّ في سجلِّ الخالدين... ولا

يضرهنَّ بعد ذلك أبقين قيد الحياة، أم لقين حتفهن شهادة، وهنَّ يتمثلن مقولة الشاعر الفحل مخاطبا أمَّه الصابرة:

أمَّاه لا تجزعي فالحافظ الله ... إنا سلكنا طريقـــا قد خبرناه
في موكب من دُعاة الحقِّ نتبعهم ... على طريق الهدى أنَّى وجدناه
لا تجزعي لفتًى إن مات محتسبا ... فالموت في الله أسمى ما تمنَّاه

قبل التاريخ المحدَّد بيومين؛ انقلبت الدنيا رأسًا على عقب في إسرائيل، وفي العالَم أجمع؛ ولقد أذاقت غزَّةُ الظالم الجبار محنته، وأنالته المهاوي وسوء العاقبة؛ ومن ذلك أنَّ الجنود المجاهدين قبضوا على جنديٍّ إسرائيلي رهينة؛ ولقد تعقَّدت المساومات، وغلت المبادلات، وقامت الدنيا في إسرائيل ولم تقعد؛ وسجِّلت القوائم التي طالب بها الأُباة مقابل إطلاق سراح الجنديِّ؛ ثم عُدِّلت، إلى أن استقرَّت في قائمة أخيرة، تَمَّ الاتفاق عليها، ثم التوقيع على تنفيذها من الجهتين؛ ومن قدر الله أنَّ أسماء الفتيات جميعهنَّ، ومنهنَّ ميمونة، كانت تتصدَّر القوائم؛ ذلك أنهنَّ من القاصرات... فنفِّذ القرار، وعلى جناح السرعة تمَّت المبادلات، خلافا لإرادة "زئيف"، والضابط، ولجنة الخبراء...

وها هي ذي ميمونة تخطو خطواتها الأولى خارج السجن...

كانت الحشود من أهالي المساجين تنتظر بشغف شديد، وترقُب

اللقاء الحميم؛ القلوبُ منها تتطاير حبًّا وشوقا؛ والألسن تلهج شكرا وحمدا؛ والأعين تنهال دمعا سخينا؛ ومن الناس من هو عصيُّ الدمع، جفَّت مآقيه، واحترق قلبه فرحا؛ ومن بين الجموع... هنالك، في الجهة اليمنى من التجمُّع المهيب؛ يقف رجل وقور، مضطربًا بعض الاضطراب، متجمِّلا كثيرا من التجمُّل، ذاكرا الله بصوت مرتفع، وبلسان لا يفتر...

وإلى جوار الأب الحبيب طفلٌ صغير، حسَن الطالع، جميل الوجه بهيَّه؛ وقد توشَّح بثوب لَطالما اشتهاه، وتمنَّى أن يتبختر به، ولا يذكر أنه لبس مثله، مِن يوم غادرت أخته الحبيبة ربوع الدار؛ قبل أكثر من عام...

وها هي ذي امرأةٌ جمعت صفات القداسة والطهر والوقار؛ امرأةٌ آوت إليها معاني الحلم والصبر والشكر؛ تقف مشدوهة؛ أحيانا تسحُّ عيونها دموعا من البكاء خشية؛ وأخرى تنهال من شدة الفرح أملا؛ وهي تنتظر بفارغ صبرها، وتقف على أصابع قدميها؛ علَّها تكون أوَّل من يشهد البدر المنير، ميمونةَ الحبيبة، وقد أهلَّت وبدا محياها الأغر، بُشرى للعالمين المشوفين... وترياقا للمحبين المشوقين.

خرجت ميمونةُ، ضمن حشود السجناء من الذكور والإناث؛ فهالها المشهد البهيج؛ وأثلج صدرها الموقف الجلل؛ فتصبَّرت وتجمَّلت، ثم مسحت الدمع من وجنتيها الورديتين؛ والتفتت نحو السماء، وجهة

«خالقها»؛ شاخصة بصرها إليه وحده... معرضة عن الالتفات إلى أمواج «الناس»، وإلى سفوح «الكون»... لأنَّه، هو سبحانه، هو وحده الذي رعاها بعينه التي لا تنام؛ وكلأها بركنه الذي لا يُضام... التفتت إليه وحده؛ ومِن قرارة قلبها الواسع الفسيح، مِن هنالك في عمق الأعماق، اصَّعدت زفرةٌ للشكر، ودوَّت تنهيدةٌ للحمد؛ فنادت بصوت حنون، مبحوح أشج:

"يا رب، ساعدني وكن معي"

ثم تقدَّمت خطوات، فإذا بها وقد التصق صدرها بصدر أمِّها، تقبّلها وتحضنها... تنظر إليها، وتعيد النظر... وما هي إلاَّ لحظات حتى حُلَّت عقدة لسانها، وفُكَّ أسر صمتها؛ فنطقت الأمُّ الرؤوم الحنون؛ وأحسَّت بالطاقة والقدرة على أن تقول، حرَّكت لسانها ببطءٍ... فاستجاب، وقالت:

"ميـــمو...نة... الحمد لله..."...

ثم أجهش الجميع بالبكاء: الأب، والطفلة، والأم؛ وراح الصبيُّ يقفز ويصفِّق... لكأنَّ الملائكة تحمله على جناحيها المرفرفتين؛ أو لعلَّها حملته يقينا...

انفضَّت الجموع؛ وراح كلٌّ إلى سبيل؛ وتوجَّهت ميمونة وأهلُها إلى بيتهم الدافئ الهنيِّ، في عمق نابلس الطيبة الأبية؛ وعلى مكتبها

الصغير؛ قضت الساعات الطوال، وهي تخطُّ مذكراتها، التي تحفظ تفاصيلها لحظة بلحظة، وساعة بساعة... ثم أودعتها ظرفًا؛ وهي تؤمن أنه سيأتي - في يومٍ ما - كاتبٌ يروي ملحمتها للعالمين، لا فخرا ورياء، لكن عبرة وحمداً، وهمَّة وشكراً... ثم أغلقت الظرف بإحكام؛ وكتبت على وجهه، بخط جميل:

هذه مذكرات ميمونة، وهي مذكرات كلِّ فتاة، وكلِّ شابٍّ مسلم، مؤمن، راشد... هي مذكِّرات من طلَّق الشاطئ وخاض عُباب البحر، مؤمنا بالنصر المبين... معلنا باختصار شديد أنَّ الشاطئ للصغار، والبحر للكبار»...

ثم قلبت الظرف، وكتبت على ظهره ترنيمتها الخالدة:

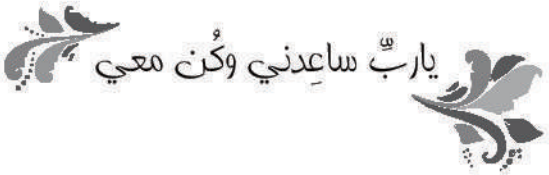

ثم أودعت ظرفها القدرَ الجميل؛ وها هي ذي قصتها تُروى للعالمين، قصَّة تبشِّر بالجيل الجديد، والأمل الوليد.

دعوة وتنويه

الدعوة:

الأخت الكريمة، بطلة الرواية: «ميمونة». هي من نابلس بفلسطين، كانت بحقٍّ سجينة في السجون الإسرائيلية، وقد عرضت عناوينَ قصتها قناة «التركية» باللغة العربية، قبل عامين، في حصَّة بعنوان: «غضب الملائكة»؛ ثم نسجنا خيوط الرواية استيحاء منها، لا بالتفاصيل ولكن بالروح والمعنى، بناء على نموذج الرشد...

فالرجاء من كلِّ من أمكنه أن يرشدنا إلى «ميمونة»، أو يبلِّغها الرواية والتحية والتقدير، أن يفعل؛ وهي اليوم «رمز خالد» لجيل جديد... وبشرى جديرة لفتح قريب... حفظها الله ورعاها، وحفظ والديها وأهلها، وعجَّل بالفرج على أهلينا في فلسطين العزيزة... آمين.

التنويه:

لا بدَّ من التنويه بكلِّ من أسهم في هذا العمل الفكريِّ أولا. والأدبيِّ تباعا؛ بخاصَّة الأساتذة الذين راجعوا المسودة، وتحمَّلوا عناء التصحيح، فأثرَوْا العمل بشكل واضح؛ وهم على التوالي، الأساتذة والدكاترة: محمد ناصر بوحجام، صابر عبد الفتاح المشرفي، مصطفى صالح باجو.

فهرس

ساعة التفتيش 5

الأسئلة المحيّرة 13

ميمونة تهدِّد أمن إسرائيل 23

أنـا ؟ 35

خالقي ؟ 49

الإنسان ؟ 63

الشاطئ والبحر ؟ 79

ثم أغلقت الظرف بإحكام، وكتبت على وجهه بخط جميل:

هذه مذكرات ميمونة، ومذكرات كلّ فتاة، وكلّ شاب مسلم، مؤمن، راشد... هي مذكرات من طلّق الشاطئ وخاض عباب البحر، مؤمنا بالنصر المبين... معلنا باختصار شديد:

أن الشاطئ للصغار، والبحر للكبار

ثم قلبت ميمونة الظرف، وكتبت على ظهره ترنيمتها الخالدة:

يا ربّ، ساعدني وكن معي

ثم أودعت ظرفها القدرَ الجميل، وها هي ذي قصتها تُروى للعالمين، قصة تبشّر بالجيل الجديد، والأمل الوليد.

كتابك
Kitabook

ISBN : 978-9933-817-37-7
6 789735 138295

008
2013

Kitabook.net
info@kitabook.net